سوزانا تراتنيك

متوازيات

قصص

ترجمة
محسن الهادي
مارجيت الهادي

صفصاف
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

سوزانا تراتنيك

متوازيات

قصص

صدرت في ليوبليانا عام 2005

ترجمة

محسن الهادي

مارجيت الهادي

2015

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

سوزانا تراتنيك/ سوزانا تراتنيك كاتبة ومترجمة وصحفية وناشطة اجتماعية سلوفينية. حصلت على الماجستير في علم أنثروبولوجيا الجنس. صدرت لها خمس مجموعات قصصية، وحصلت مجموعتها القصصية "متوازيات" على جائزة بريشيرن للأدب، وهي أعلى جائزة سلوفينية تعطى في مجال الآداب والفنون.

قصص
....

متوازيات

سوزانا تراتنيك

الطبعة الأولى ديسمبر 2015

رقم الإيـــــداع: 2015/23180

الترقيم الدولي: 978-977-5154-59-0

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

"Vzporednice" © 2006 by Suzana Tratnik
Originally published by Založba Škuc-Lambda, Ljubljana, Slovenija

This book gained financial support by the Trubar Foundation, sited at the Slovene Writers' Association, Ljubljana, Slovenia

تم نشر هذا العمل بدعم من مركز الأدب السلوفيني لبوبليانا. سلوفينيا.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

متوازيات

المحتويات

9	«متوازيات»
17	أرجوكِ، كفى.. لا تمثلي يوحنا!
25	ذات القصاصات
47	خلف المقعد
61	وتعود الصور (الأشباح)
77	تليفزيون كولور
91	القبور لا تُفْتَح
99	حارسة الحديقة
115	سُلَّمٌ إلى السماء
123	فاشينيك أو التنكر بالأقنعة
139	رنداشي أو المستأجرون
151	مملكة الحيوان
157	خِيَاطة الأميرة
175	شقوق في الغسق

إلى كاترين (1969- 2005)

«متوازيات»

سوزانا تراتنيك

كتابة غير كلاسيكية

بقلم: مارجيت بي. الهادي

سوزانا تراتنيك كاتبة ومترجمة وصحفية وناشطة اجتماعية سلوفينية، حصلت على الماجستير في علم أنثروبولوجيا الجنس. حصلت مجموعتها القصصية «متوازيات» على جائزة بريشيرن للأدب، وهي أعلى جائزة سلوفينية تعطى في مجال الآداب والفنون. صدرت لها خمس مجموعات قصصية أولها مجموعة «تحت الصفر» عام 1999، «في فناء بيتي» عام 2003، «متوازيات» عام 2005، ثم «ما لم أفهمه أبدًا في القطار» عام 2008 و«الأرض المحمية»، بالإضافة إلى رواية «اسمي داميان» عام 2001، وقد حولت إلى عمل مسرحي، ورواية «العالم الثالث» في عام 2007. مجموعاتها القصصية نشرت في عديد من المختارات القصصية والمجلات المحلية والعالمية. ترجمت أعمالها إلى الألمانية والتشيكية والسلوفاكية والصربية والإسبانية واللغة المالطية. أصدرت أيضًا كتابًا مصورًا للأطفال عام 2010 وأعمالًا أدبية أخرى.

ولدت سـوزانا تراتنيك عام 1963 في مدينة مورسـكا سوبوتا في شـرق سـلوفينيا حيث تلقت تعليمها الابتدائـي ثم الثانوي، ثم التحقـت بكلية العلوم الاجتماعية في بجامعـة العاصمة ليوبليانا، حيث تخرجت ثم حصلت على الماجستير من كلية العلوم الإنسانية. وهي تعيش الآن في العاصمة ليوبليانا.

مجموعة «متوازيات» تحوي ثلاث عشـرة قصة قصيرة متعددة المستويات، تدون فيها الكاتبة الوقت والمكان وتستكشف الإنسان والمجتمع عبر منظار طفل بطريقة سـيكولوجية رفيعة، وبتركيبة مبتدعـة. تجري أحداث القصـص كلها في مسـقط رأس الكاتبة، مدينة مورسـكا سـوبوتا التـي تقع فـي منطقـة بريكموريه في شمال شرق سـلوفينيا، في نهاية السـتينيات وبداية السبعينيات. كل قصة من المجموعة تعكـس بالتوازي فترات وأمزجة وأوضاعًا مختلفـة. قصـص تعرض بعيون طفـل مواضيع مختلفـة لا تزال حيويـة وراهنة، ولا زالت تثير الجدل، تدخل في حياة كل شـخص مرهون بالوقت والمكان. تصنع الكاتبة باستخدام التفاصيل الحية والمنتقاة سـردًا متكاملًا متماسكًا يكشف لنا خبايا الحياة اليومية المثيرة ومستوياتها المتعددة، والأسئلة متعددة المعاني التي تبقى دومًا دون جواب.

هـذه القصـص التي تنقلنـا إلى طفولـة الكاتبة متشـابكة مع القضايا الأسرية وأسـرار البرجوازية مثل السخط، وقراءة الطالع، والخيانة، والطـلاق، والعنف، والخطيئة، والاختـلاف، والتهميش، والقتـل، والانتحار. تحكيها طفلة تكبر وتنمو وتترعرع عند جدتها التـي كانـت محاطة بالأحـكام والآراء المسـبقة التي تعشـش في مجتمعها، بالإضافة إلى بعض القوانين العرفية غير المكتوبة.

تقـول الكاتبة عن نفسـها إنها ليسـت المرأة الكلاسـيكية التي يمكـن توقع رد فعلها. ولكنها هادئة، لا تصـرخ ولا تثرثر؛ لذا من الصعب استثارتها، ولكن عندما يحدث ذلك فإنها لا تعرف الرحمة.

الكاتبة تتكلم عن نفسها وعن عملها الأدبي «متوازيات»:

مجموعتي القصصية «متوازيات» هي المجموعة المحببة لقرائي من بين كل أعمالي، وقد أثارت اهتمام العدد الأكبر من النقاد.

عائلتـي لم تكن ذات ثقافة عاليـة، ولكنهم علموني القراءة، وقد يكون ذلك لأنهم أرادوا أن يشغلوني بشيء ما. وإنه من الحظ أنهم شغلوني بالقراءة. ولكن لم يكن هناك ممنوع: كان يمكنني أن أقرأ كل ما أريد.

إن الطفولـة كانت دائمًا مصدرًا حاضـرًا ومهمًّا يحدد توجهات الإنسـان في عدة نواحٍ. الآن وأنا أتقدم في السـن وأبتعد زمنيًّا عن طفولتـي، تصبح المصادر الأخرى أيضًا مهمة مثل الزمن الحاضر مثـلًا، ولكني غالبًا ما أعود إلـى الماضي البعيد، الذي أصبح بعيدًا حتى عاطفيًّا، وذلك مهم حتى أستطيع أن أسبر غوره دونما حرج. من خلال التفاصيل أسـتطيع أن أعبر عمَّا يعيشـه شـخص ما في لحظة مـا، وأحيانًا أختلق هذه التفاصيل. وكما في دراسـتي كنت أختار الأشـياء التي تهمّني وتثيرني، فإني كذلك عند الكتابة: لا بد أن أتذكر شـخصًا أو حوارًا معينًا وأتعـرف عليه كمادة من حياتي الماضية يمكنني العمل عليها وتشكيلها. ورغم ذلك فإني قد كتبت قصصًا مختلقة وحتى خيالية.

في هذه القصص أعمل على تحليل علاقتي بجدتي. الرجال نادرًا ما يظهرون؛ لأن النساء كن في البيت، أما الرجال ففي أعمالهم. عشت

زمنًا طويلًا مع جدتي التي كانت ترعاني وتربيني. كان يشدني كثير مما كانت تقوله لي من الأشياء الخيالية إلى النصائح التربوية (والتي لم أكن أتّبعها في الغالب). كان بيننا صراع متواصل، وفي نفس الوقت لديك إنسان يقف دائمًا إلى جانبك تمامًا، وهو لك تمامًا، وأنا كنت أيضًا لها، حتى إن السؤال عن الانتماء غير وارد بتاتًا. كنت كثيرًا ما أجلس مع المسنين وأنصت إلى حكاياتهم، التي لم أكن افهم الكثير منها تمامًا، ولكن كنت أحس أنها قصص شيقة ورائعة. كانت تلك الحكايات في الغالب مأساوية: أحدهم ترك الآخر، وإحداهن كانت حاملًا ثم فقدت جنينها. أتذكر حكايات عندما كانت جدتي تجلس مع صاحباتها ويختلقن حكايات من الخيال. كنت أتشبع بهذه الحكايات وأحس بأنها حكايات حقيقية. وبعضها كانت تطاردني في الليل مثل الراهب المقطوع الرأس الذي كان كثيرًا ما يتمشى بجانب سريري في غرفة النوم. أعتقد أن هذا جزء من الترعرع والنضوج، رغم أنهم يقولون الآن إن مثل تلك الحكايات مضرة. أعتقد أننا لا يمكن أن نحمي الطفل من كل شيء. عندما أخذوا جدتي إلى المستشفى انقلب الوضع رأسًا على عقب. كانت لحظات مأساوية، لا يسعك إلا أن تتمنى ألّا تكون جزءًا من ذلك، ألّا تذهب إلى المستشفى وتحسد أولئك الذين لا يجب عليهم التواجد هناك.

من بين كل المجموعات القصصية التي كتبتها «متوازيات» أكثرها تجانسًا وتماسكًا. شكلت القصص بطريقة تجعلها لا تتحدث عن شيء واحد فقط. أي تقف كل واحدة بمفردها متوازية مع القصص الأخرى في المجموعة، ولكن في نفس الوقت مترابطة معها. قصة «فاشينيك» تتكلم عن وقت الكرنفال وحفلة التنكر،

ولكن أيضصا عن الحب بين طفلتين.. متوازية ليست مكتوبة في وضوح ولكن يمكن التعرف عليها. هناك أيضًا العوالم المتوازية التي يحملها الطفل في نفسه، عندما يجمع بين عالم الأطفال وعالم الكبار ثم يخلق شيئًا ثالثًا.

وفي خلال كتابة مجموعة «متوازيات» تشكلَ لون فكاهي ومعانٍ جديدة تصنعها طفلة وتحكيها في صيغة المتكلم. أكتب من منظور البالغ؛ لأن منظور الطفل ليس إلا منظور البالغ الذي يضع نفسه في موضع الطفل وينظر بعينه. وهذا متواجد لدى الطفل عندما يريد أن يكون كبيرًا ويحاول أن يتصرف كالشخص البالغ، وفي محاولته الجادة تلك يفعل أخطاء يندم عليها، ولكن قد تكون في نفس الوقت مضحكة. هذه الأخطاء هي أيضًا نقد للوضع الذي يعيشه الكبار ولتصرفاتهم. حتى الكبار يتصرفون في بعض الأحيان حسب نماذج معينة ليبدوا كبارًا، وحتى لا يبدوا وكأنهم لا يعقلون.

في مجموعة «متوازيات» كثيرًا ما أتعامل مع الحدود. دائمًا أكتب عن أشياء أو أشخاص أو ظواهر تحوم حول الحدود، وهم مقدر عليهم أن يتخطوها. وفي الحقيقة فالعالم مقسّم، حتى إنهم يقولون لك طيلة الوقت إن الآخرين هم كذا وكذا، ولكنك أنت لست كذلك، أنت لست أحدًا منهم. وفي بعض الأحيان لا نستطيع التأثير على من سنكون أو من نحن في الحقيقة.

من المؤكد أن الكتاب يحوي بعض الحنين إلى تلك الفترة وذلك الزمان، ولكنني في الحقيقة لم أعد أتذكر كثيرًا من الأشخاص الحقيقيين. بعض أجزاء الكتاب بالكامل من الخيال.

إن مشكلة المناطق الصغيرة النائية في سلوفينيا كمدينة مورسكا سوبوتا هي أن الكل هناك يعرف كل شيء عن أي شخص. وحتى الحدود الطبقية واضحة ومحددة؛ لهذا فان الرقابة التي يفرضها المجتمع قوية، أو لنقُلْ واضحة. عندما دخلت المدرسة الابتدائية كان من المعروف عن كل واحد هو ابن من ومن الذي سوف تفضله المدرّسة. كل هذا قيل لي في البيت قبل دخولي المدرسة، وهكذا كان حقيقة. كان هذا عرفًا خفيًا ولكن معلومًا ومقبولًا عند الكل. وكانت كل الشئون الشخصية الخاصة أمورًا عامة، يعني مثلًا كانوا ينظرون إلى المرأة المطلقة وكأنها مجرمة. أتذكر أيضًا في طفولتي أنني كثيرًا ما كنت أسمع الناس يتهامسون: «هؤلاء يهود»، وكأنهم ناس غرباء، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يختلفون عنا في شيء، ولم أفهم كيف يتعرفون عليهم. لم يكن يُسمح بأي خروج عن المعتاد، حتى المثقفون أو الذين يمارسون نشاطات ثقافية كانوا يعتبرون مزعجين.

في المجموعة هناك على الأقل ثلاث قصص يمكن التعرف فيها على الحب المثلي، ولكنها كتبت من منظور الطفل، حيث إن الإحساس الجنسي يختلف، وتحديد الاتجاه لم يتضح بعد.

في قصة «خياطة الأميرة» حاولت أن أكسر ثنائية النظام الجنسي في اللغة السلوفينية، وكان ذلك صعبًا؛ ولذا فإني قد أعدت قراءة القصة عدة مرات حتى أتأكد أني نجحت في إخفاء جنس البطل الحقيقي.. حللت القصة من ناحية نحوية وصرفية واستخدمت التركيبة الزمنية للمتكلم التي لا تفصح عن جنسه.

قصة «خياطة الأميرة» التي تتميز في أسلوب سردها ومحتواها

تعتبر حديثة، أما القصص الباقية فكتبت من منظور الطفولي؛ ولكن من خلال استعادة ذكريات الماضي، ويجري سردها في صيغة ضمير المتكلم المفرد، ولكن هذه القصة فقط، وهي أيضًا تحكي عن فترة الطفولة، تسرد أحداثها في صيغة ضمير المتكلم المفرد والمثنى أحيانًا. لذا فهي تخفي جنس الشخصية الرئيسية التي تنتقم من ثلاثة فتيان لأنهم ضربوها، فتلبس فستان فتاة عليه ورد مطرز لامع يعكس ألوان الشفق في مساء شتوي، فتبدو وكأنها بقع من دماء على الفستان. يبدو لي أن هذه طريقة مثلى للانتقام من الأشرار عن طريق تصميم رائع. على أحد المستويات لدينا «خياطة الأميرة» قصة تقريبًا خيالية عن انتقام طفل من الأشرار، وعن كيف يعتمد الطفل على نفسه وينتقم لها، وعلى الجانب الآخر تتناول القصة مشكلة العنف الذي تمارسه مجموعات ضد الفرد. ولكن القراء أعطوا للشخصية الرئيسية جنسًا معينًا، وبما أن هذه القصة هي ما قبل الأخيرة في المجموعة وفي كل القصص التي تسبقها كانت البطلة طفلة (إلا في قصة «مملكة الحيوانات» فكانت الطفلة في البداية طفلًا يحمل الذكرية النحوية) لذلك فإن القراء استنتجوا أن هذا الطفل صبية، ولكن بعضهم لم يلاحظوا انقلاب جنس البطل في القصة.

في قصصي كثيرًا ما أستخدم شخصية «الطفل» دون تحديد جنسه، ويظهر بصيغة الجنس المذكر نحويًا. وهذا أيضًا في قصة «مملكة الحيوانات» حيث إنني قبيل نهاية القصة أفصح عن أن الطفل ليس إلا صبية عمرها ست سنوات. وهكذا فإني في قصصي أجرب إدخال لغة غير موسومة بجنس، وهي تجربة الحياد الجنسي في اللغة، حيث إن المتكلم الذي يحكي القصة ليس محددًا جنسيًا

مــن الناحية اللغوية، ولكــن ليس بالضرورة مــن ناحية المحتوى أيضًــا، وهذا يعتمد علــى إدراك القارئ. ومثل هذا أيضًا اســتخدام كلمة «طفل» التي هي ليســت محددة جنســيًّا ولكــن الأمر يختلف نحويًّا.

أرجوكِ، كفى.. لا تمثلي يوحنا!

عادت فيسنا من المدرسة بعد الظهر. وضعت حقيبتها في المطبخ وجلست إلى المائدة. قدمت لها أمها على الطبق بعض قطع الخبز المقلي. فيسنا بدأت بالأكل دون أن تفكر هل تكون عادة جائعة في مثل هذا الوقت.

«أليس عندك واجبات اليوم؟» سألتها أمها.

«لا» ردت فيسنا. لم تستطع أن تتذكر في الحال هل كانت تكذب.

جاء قرار أمها «إذن يمكنك الذهاب إلى مارينا».

وضعت فيسنا الطبق في حوض غسيل الأطباق وذهبت إلى الجيران.

كانت مارينا لوحدها في البيت، لذلك كان البيت غير مرتب. الأطباق الوسخة والخبز والكراسات وبدلة الرياضة على المائدة. قدمت مارينا لفيسنا قطعة كبيرة من الكعك ولكن فيسنا لم تكن جائعة. كان من الممكن أن تقبل قطعة الكعك تأدبًا لو كانت أم مارينا هي التي قدمتها لها.

قالت مارينا إنها الآن سوف تلبس بدلة الرياضة في البيت. فتحت فيسنا الراديو الموضوع على الثلاجة وأدارت مفتاح المحطات.

تقدمت بعد ذلك إلى المائدة لترى مارينا بالفانيلا الداخلية فقط وتمسك في يدها سكينًا.

«ماذا دهاك؟» قالت فيسنا في نغمة عتاب «البسي، إنك تخيفينني».

رفعت مارينا كتفيها غير مبالية وابتسمت ابتسامة ماكرة، ثم ظهرت على وجهها ملامح جادة ثم هوت بالسكين مرتين في الهواء كأنها تطعن أحدًا.

«مارينا، كفى!» صرخت فيسنا.

ولكن مارينا قلبت ملامح وجها إلى ملامح بشعة وغاضبة، وقد ساعدها على ذلك سقوط أسنانها الأمامية «أنا لست مارينا، أنا يوحنا. يووووحاااانا».

دارت فيسنا حول المائدة احتياطًا لأي مفاجأة. مارينا تقدمت خلفها وهي تصرخ: «يووووحاااانا، يوحنا المجنون. فلْيُعْنكم الرب!».

فيسنا فكرت أنه من غير المعقول، طبعًا، أن تتحول مارينا فجأة إلى يوحنا الذي يختلط بالأطفال لمعاقبتهم، ولكن من يدري؟ قد تكون مارينا تفضل أن تكون يوحنا على أن تكون مارينا.

«سوف أنادي أمي! سأذهب إلى بيتنا إذا لم تعيدي السكين إلى الدرج».

كانت فيسنا خائفة جدًا، وكان ذلك يسعد مارينا.

صاح يوحنا: «لن تبرحي مكانك! اركعي واصمتي!».

ركعت فيسنا واختبأت تحت المائدة.

«اخلعي سـروالك! الكل يخلع! هكذا قال يوحنـا»، للمرة الثانية تطلب مارينا وهي على صورة يوحنا.

حاولت فيسنا أن تزحف بعيدًا تحت المائدة، ولكن مارينا انحنت وبدون عناء اسـتطاعت أن تصل بطرف السكين إلى مؤخرة فيسنا تحت ملابسـها القصيرة، وبحركة واحدة شقت ملابسها الداخلية. غطت فيسـنا وجهها بيديها. إذا لم تكن ترى يوحنا ومعه السـكين فهـي على يقين أن من يقف أمام المائدة ليسـت إلا مارينا، وهكذا يقل خوفها.

ولكـن مارينا ركعـت هي أيضًا تحـت المائدة وهي تردد اسـم يوحنا وتهوي بالسـكين تحت المائدة. كانت فيسـنا لا تزال تغطي عينيها ولا تتذكر إلا الأنفاس السـاخنة من خلال الشـق في لباسها الداخلي، ولكنها لم تتحرك.

«حسـنًا، يوحنا لم يعد هنا، لقد ذهـب»، أعلنت مارينا في خيبة أمـل واعتدلـت قائمـة ووضعت السـكين علـى المائدة ثـم غيرت ملابسـها الداخلية ولبسـت بدلـة الرياضة، وعندهـا فقط خرجت فيسنا من تحت المائدة. دست سروالها الداخلي المقطوع في قعر سـلة الفضلات في المطبخ تحت بقايا الكعك، بعد ذلك خرجتا إلى الفنـاء. مارينـا قالت إن عليها أن تطعم الدجـاج رغم أنه لم يطلب أحد منها ذلك.

لما عادت فيسـنا في المسـاء إلى بيتها سـألتها أمها ماذا كانت تفعـل طول ذلك الوقت عنـد الجيران، فقالت إنهـا أكلت كعكًا مع مارينـا وأطعمـت الدجاج بينما كانت تحاول جـذب تنورتها تحت

الركبة.

كنت أزور فيسنا كل يوم بعد الظهر. وكنت أفعل ذلك بحذر شديد؛ في البداية أتأكد أن سيارة عمها ليست أمام بيتهم. كان عمها طبيبًا، ومرة اكتشف عندي النكاف، ومنذ ذلك اليوم كنت أحاول الابتعاد عنه فقد يكتشف عندي أي شيء آخر. هكذا عمل الأطباء.

وذات يوم لم يكن عمها هناك. كانت فيسنا تجلس على عتبة الباب بجانب طبق الخبز المقلي، وكانت غارقة في التفكير بينما تبلل بلعابها آثار جروح على رجليها.

قلت لها: «أتيت لأريك يوحنا».

استمرت في تبليل رجليها بلعابها دون أن ترفع رأسها.

قلت: «أتيت لأريك يوحنا».

«أي يوحنا؟».

«الذي يحمل السكين طبعًا».

«أريني».

أعطيتها قصصًا مصورة كنت أخفيها خلف ظهري كمفاجأة مريرة. على صفحة الغلاف يظهر فارس بلحية تيس، وشوارب بارزة وعيون صغيرة سوداء. وكانت يده على مقبض مزخرف لسيف لامع.

نظرت فيسنا إلى صورة الغلاف بتفقد وتوقفت عن تبليل

رجليها.

«لا» جاء ردها.

«ماذا لا؟».

«لا يمكنك القول إنه يوحنا».

تملكتني الدهشة. أردت أن أريها يوحنا الشخصية الغامضة وهي تقول إنه ليس يوحنا.

«كيف عرفتِ أنه يوحنا؟» سألتني في منتهى الجد.

«قلت لك إنه يوحنا».

«حسنًا، من قال لك ذلك؟».

«أعرف أنه يوحنا».

أمسكت فيسنا بصورة الغلاف أمام عينيها بيد ممدودة كما تمسك جدتي مكتوبًا مهمًّا لقراءته بدون نظارات. تفحصت النظر في يوحنا من بعد ثم قالت في نغمة تصالح:

«من الممكن، ولكن لا يمكن التأكد من أنه يوحنا. لا يبدو لي أنه يوحنا، ولكن الآن سوف أقوم بتنظيف الحظيرة. يمكنك المجيء معي إذا وعدتِني أنك لن تصرخي".

"لا، لن أصرخ".

"لا أصدقك"، ردتْ في ضجر: أنت دائمًا تخافين من الخنازير".

"لا أخافها" قلت ساخطة، "أخافها فقط عندما تطلقينها من

الحظيرة وتحرضينها على الاصطدام بي".

وحين كنا في حوش الحظيرة المغلق فتحت فيسنا كل أبواب الحظيرة عمدًا. التصقتُ بالجدار ووضعتُ يدي على فمي لأكتم صراخي بينما كانت الخنازير تصيح وتجري في داخل الحوش.

وعندما تركنا الحظيرة كنت لا أزال أرتعش.

"هيا لنتبارز بالسيوف" قلت مقترحة. نسيت فيسنا باقي أعمالها في الحديقة وأحضرت عصوين طويلتين دقيقتين.

"هاكِ، خذي، اسقطي"، كنا نهوي بعصوينا في الهواء، وكل مرة ترتطم العصوان في قرقعة، ندور حول نفسينا ونعود للهجوم.

صرختُ بوحشية عندما طعنتني فيسنا برفق في كتفي وتظاهرت كأني أحبس النزيف بيدي اليسرى، وباليد اليمنى هاجمتها بطعنة انتقامية في القلب. لوحت بالعصا عدة مرات في الهواء صارخة ثم صوبتها إلى قلبها ولكني أصبت عينها. تركتْ فيسنا العصا تسقط على الأرض وجلستْ وهي تغطي عينها بيدها تمامًا كما يفعل عدو يوحنا في القصة المصورة في الصفحة 32.

"فيسنا؟".

جلستْ فيسنا ببطء وبدون أن تصرخ. رميتُ العصا جانبًا وهربتُ إلى بيتنا.

كنتُ جالسة في المطبخ. وكنت أحس بحرقة في أحشائي. أمي طبخت لي طبقًا من البودنج. كنت أفكر أنني قد أعميت فيسنا، وذلك لا يمكن أن يتناسب مع طبق من البودنج بطعم الفانيليا.

في المسـاء أحضرت لنا فيسنا الحليب. كان بياض عينها شديد الاحمرار، ولكن عرفت فورًا أنه يمكنها الرؤية. إذن لم أعمها.

"اجلسي عندنا قليلًا"، قالت لها أمي.

هذا كان آخر شيء أتمناه في تلك اللحظة.

"ماذا حصـل لعينك؟" قالت لها جدتي فـي رعب: "هل يمكنك الرؤية؟ هل تؤلمك؟".

(الكل ينـزع بنطاله هكذا قال يوحنـا) كان هذا يدور بخاطري دون شعور.

جلست فيسنا. وفي الحال قدمت لها طبقي من بودنج الفانيليا. شكرتني بنظرة من عينها المحمرة كالدم.

"لا تؤلمني" ردت بفم ملـيء بالبودنج. "أرادت أختي أن تربط عينـي المحمرة، ولكن عمي قال إن الأمـر ليس خطيرًا. بعد بضعة أيام ستعود بيضاء سليمة كما كانت".

كانت تنظر في سـكون إلى الأمـام وكأنها تخبرنا إلى أين عليها أن تحمل الحليب. ثم واصلت بلهفة تناول البودنج بملعقة كبيرة.

"من فعل بك هذا؟" سألتها جدتي.

انتظـرتُ متوقعة أن تتركز العين الداميـة عليَّ وتتهمني محقَّةً، ولكن فيسـنا لم ترفـع عينيها عن البودنج. فقـط وضعت الملعقة جانبًا. "يوحنا" بعد فترة صمت ردت وهي شـاردة الذهن "يوحنا فعل بي هذا؟".

ذات القصاصات

1

عندما دخلت تانيا الحديقة العامة كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا. كان عمرها آنذاك عشر سنوات أو أقل قليلًا. لم تعد تتذكر بالضبط. المهم أنها ذهبت لأول مرة وحدها إلى وسط المدينة دون أن ترافقها أمها أو الخادمة. أرادت أن تسجل اشتراكها في المكتبة.

2

كانت زيارة تانيا الأولى للمكتبة قبل أسبوع، ومنذ ذلك اليوم وبسبب كل تلك الرفوف التي تئن تحت وطأة الكتب الشيقة، لم يهدأ بالها. قد ذهبت قبل ذلك إلى الكنيسة وإلى الدكتور وإلى الملاهي وشاهدت حفلة اليانصيب، وكل يوم تذهب إلى المدرسة، ولكنها لم تذهب إلى المكتبة قبل ذلك. ومن المحتمل أنها لم تكن لترى المكتبة لو لم ترافق ابنة خالها ميتكا التي تكبرها بثلاث سنوات. كانت تحب مرافقة ميتكا وتحب سماع صوتها الرنان، أجمل صوت في جوقة المدرسة. «لماذا لا تأتين معي؟»، أو «تانيا،

رافقيني حتـى لا ينتابني الضجر!» وكأنها تتكلم من الكتب. كانت تانيا سـعيدة بمرافقتها، فمشت معها في الأسواق والمكتبات وفي شـوارع المدينة. وغير ذلك فـإن الآخرين كانـوا يرافقونها، فأمها تأخذهـا من يدها إلـى الدكتور، أو ترافقها الخادمة إلى المدرسـة واضعـة يدها علـى ظهرها وكأنها تدفعها، فهـي في عجلة لتطبخ وتمسـح الدَّرَج في البيـت. حتى الجارة قد رافقتها إلى المدرسـة عندما تكون أمها والخادمة مشـغولتين. وبما أن المدرسـة قريبة، وبالقرب منها ليس هناك شوارع رئيسية؛ فقد سُمح لتانيا من فترة لأخـرى أن تذهب بمفردها إلى المدرسـة، طبعًـا إذا لم يكن هناك مطر أو ثلج.

«ما ذا سـتفعلين في المكتبة؟» سـألتها أمها في دهشة، وكانت تانيا تمسـك بيدهـا قصاصة كتب عليها: «خذونـي إلى المكتبة!»، أرادت أن تصبـح عضـوًا منتظمًا فـي المكتبة يمكنه أن يسـتعير الكتب. أرادت الحصول على كتب يمكنها أن تتملكها لبضعة أسابيع لتقرأها وتنظر إليها وتشـمها. أرادت كتبًا كثيرة أخرى وليس فقط الكتب المدرسية أو الكتب التي تستعيرها بعض الأحيان من ميتكا. وبما أن أمها الآن تستعد للذهاب إلى عملها فلن تستطيع أن ترافقها إلى المكتبة، وفوق ذلك فإنها تعتقد أن تانيا يجب أن تشغل وقتها بكتب المدرسـة التي هي أهم من الكتب التي لا تدرّس شيئًا، والتي ليسـت إلا للقراءة فقط. رفعت تانيا كتفيها باستخفاف وهي تفقد كالعـادة القوة لتنفيـذ إرادتها، وذلك قد يكـون نتيجة لضعفها أو لقلة الدافع لديها كما تلومها أمها في العادة.

«هل يجب تسـديد رسـوم الاشتراك سـنويًا؟ وماذا سيحدث إذا تأخـرتِ فـي إرجاع الكتب؟ مـن المؤكد انه يجب دفـع جزاء ذلك،

أليس كذلك؟ وإذا أردت إعادة الكتب في وقتها فان عليك أن تكوني هناك كل أسبوع تقريبًا؟ من سيرافقك في كل هذا؟ أنت تعرفين أن أمك تذهب إلى عملها، ووالدك مسافر، وذلك يعني بالطبع أنه سيكون لدي عمل كثير في البيت!» كانت الخادمة تشرح ذلك لتانيا بينما كانت تنظر إلى أمها.

كان الأمر دائمًا هكذا، عندما لا تكون الخادمة راضية عن شيء ما تصرخ: المال! هذا الشيء ليس مجانًا. وفي إحدى المرات أظهرت لها تانيا في ساعة غضب قصاصة مكتوبًا عليها: «المال! المال! المال!»، ولكن بأمر من والدتها اضطرت إلى الاعتذار وتقطيع القصاصة. لذا أخرجت القصاصة التي تحمل: «خذوني إلى المكتبة!».

«لا أدري!» ردت الأم على الخادمة، «سوف نسأل والدها، حسنًا؟ قد لا تكون فكرة سيئة أن تتعلم بعض الاعتماد على النفس، ومن ناحية أخرى فهي ليست حازمة وحاذقة مثل ميتكا. يبدو على ميتكا واضحًا أنها بنت أخي الذي لا يترك أحدًا يغلبه. حسنًا، الآن يجب عليّ أن أذهب».

وفكرت تانيا أن والدها قليلًا ما يعود إلى البيت، سيأتي لعطلة عيد الميلاد، وآنذاك ستكون المكتبة مغلقة. وفوق ذلك فإن ميتكا يحق لها أن تكون محبة للاستطلاع وحاذقة، فهي قد كانت في كل مكان, كانت تشارك كل سنة في معسكرات على شاطئ البحر، وكانت تشترك في جوقة إنشادية وتذهب إلى المدرسة الدينية، وتعلمت لغتين أجنبيتين. لم تكن عند تانيا الفرصة لتكون حاذقة، ويمكن أن يحصل لها أي مفاجأة غير سارة مع كل خطوة من

خطواتها. وإذا حدث شيء كهذا فإن حالتها ستكون أكثر سوءًا! لذا مـن الأفضل ألّا تتعرض في حياتها إلى أشـياء جديدة، هكذا كانت تانيا تسمع أهلها يتكلمون عنها.

وفـي عجلة كتبت تانيا قصاصـة جديدة لم تكن ضمن مجموعة القصاصـات التـي تحملها معهـا دائمًـا: «من الممكـن أن أذهب بمفردي!».

«هذا ليس من الممكن، مع السـلامة تانيـا» كان رد أمها، قبّلتها وأخذت حقيبتها ثم أسرعت خارجة من الباب.

ولما سـمعت تانيا صوت سـيارة أمها تهدر عبس وجها وبدأت بالبـكاء. بكت تانيـا بصمت، كانت جالسـة إلى المائـدة وحاولت جهدهـا أن تترك العنان لدموعها بصمـت. ولم تلحظ الخادمة أنها تبكي إلا عندما جاءت إليها بتفاحة. مسحت على رأسها ولكن ليس بلطف كما تفعل أمها، ولكن بسرعة وصرامة وكأنها تسوي سطح كعكة بيدها قبل أن تدخلها في الفرن.

«لا تقلقي، اكتبي واجباتك المدرسية؟ هل كتبت واجباتك؟».

ردت تانيا نعم بإشارة من رأسها.

«ماذا لو تذهبين إلى الحديقة لتري كيف حال زهيرات البنفسج؟ لقد نَمَت بوضوح منذ الأمس كما يبدو لي».

هزت تانيا كتفيها باسـتخفاف وعبست بوجهها، أحبت لو تأتي بنت خالها وتنقذها من هذا. كانت بنت خالها ميتكا وكأنها ملاكها الحارس، فقد قالت لها ذات يوم» تعالي معي إلى الكنيسـة، تعالي لنذهب معًا إلـى القداس» وذهبتا حقًا إلى القداس رغم أن تانيا لم

تكـن قد حضرت القداس من قبل، وكانـت تخاف من أولئك الناس الذيـن كانوا يعرف بعضهـم بعضًا، وكانوا كلهـم مجموعة تعرف تمامًا كيف تصلي وكيف تتصرف في الكنيسـة. ولكن ميتكا كانت تهمس لها بلطف أثناء القـداس «والآن اركعي» ثم بعد ذلك «والآن اجلسـي»، أو عند مغادرة الكنيسـة عندما تركع تانيا بلطافة على ركبتها اليسـرى وترسم شارة الصليب على صدرها تمسكها ميتكا مـن كتفيهـا وتديرها إلـى الجهة المعاكسـة قائلة: «تانيـا، عندما ترسـمين شـارة الصليب أو تركعيـن تفعلين ذلك باتجـاه المذبح وليـس في الاتجاه المعاكس». سـمعت تانيـا لأول مرة عن الملاك الحـارس أثنـاء القداس، وكانـت مسـرورة أن لديها حارسًـا من الملائكـة. كثيرون ليس لديهم حارس وتعلم ذلك. لقد سـمعت من أهلها يومًا أن خادمتهم ليس لديها من يعتني بها ويحميها؛ لذا كان من الأفضـل أن تظل عندهم، وبالأحرى هـي محظوظة أنها عثرت على أناس طيبين.

لـو تأتي الآن ميتكا الحاذقة لكانت مسـحت دمـوع تانيا بيدها وسـألتها: «مـاذا يمكن أن تكـون المشـكلة إذا كان الجـو جميلًا اليوم؟».

بـل هنا تكمن المشـكلة، ليس لـدى تانيـا أي قصاصات تحمل رسـائل جميلة عن الجو المشـمس وغير ذلك من الأمور المفرحة. قصاصـات تانيا تتكلم عن الجوع والوجبات المدرسـية، وتسـديد ثمن الطعام في المدرسة، وعن آلام البطن، وعن البرامج التلفزيونية التي تريد مشاهدتها.

«ابنتنا تانيا تريد أن تسـجل اشـتراكًا فـي المكتبة، وليس لدينا

وقـت لهذا. وفوق ذلك لديها الكثير من الكتب المدرسـية، أكثر من سـتة كتب في الفصل الواحد، أنا فـي حياتي لم أقرأ هذا العدد من الكتب»، سـتقول الخادمة ضاحكة، فقد كانت دائمًا عالية الصوت عندما يأتي لزيارتهم أحد. فهي إذا لم تكن تقدم الشاي أو القهوة، تقهقه بملء فمها وبصوت عال.

«فلتشترك إذن؟» سوف تقول ميتكا.

فلتشـترك إذن ستقول ميتكا... ابتسمت تانيا وهي تتخيل ميتكا التـي تؤكد هي ووالداها أنه يجـب تحفيز الطفل على التعرف على أشـياء جديدة واستكشاف العالم. استكشاف العالم دوَّت كصلوات الأعياد. لذا كتبت تانيا قصاصة جديدة لم تُرِها لأحد، هي التي رأتها فقط؛ لأن عبارة « فضلًا، أريد استكشاف العالم» لا يمكن أن تكون رسالة، هي تعرف ذلك تمامًا.

«الآن عرفـت، الآن عرفت» جاء صوت الخادمة فجأة ليقطع على تانيا أحلامها عن استكشـاف العالم. اسـتندت الخادمة إلى الفرن وشبكت يديها، وذلك يعني أنها تريد أن تنهي ما لم تستطع أم تانيا إنهاءه لضيق الوقت.

«ميتكا أخذتك إلى المكتبة أليس كذلك؟ أنتِ لا تقولين شـيئًا من ذلـك ولكني أعرف أنـه كذلك، بدون ميتكا لم تكونـي لتذهبي إلى المكتبة. هـي أيضًا التي عزفت لك على البيانو أليس كذلك؟ ولذلك أردت الشهر الماضي أن تدخلي مدرسة الموسيقى ولم يستطع أحد إقناعك أن الموسـيقى تحتاج إلى أذن موسـيقية وغير ذلك الكثير. أنت لا تسـتطيعين حتى فتح فمك فكيف بالغناء! والآن المكتبة! أنا يمكنني أن أرافقك إلى المدرسة فقط ومنها إلى البيت، لا يمكن أن

أضيع مزيدًا من الوقت».

ميتكا من المؤكد ستقول إن تانيا يمكنها الذهاب إلى المكتبة بمفردها. ميتكا كانت دائمًا ترد كما يجب، ولكن تانيا لم تستطع ذلك أبدًا، كلهم يعلمون ذلك.

عندما كانتا معًا قبل سبعة أيام في المكتبة نبهت سيدة في متوسط العمر بشعر أسود ميتكا أنه يجب تسديد الاشتراك السنوي. تسديد الاشتراك كان بالنسبة لتانيا شيئًا جديدًا وأكثر تعقيدًا من التصليب والركوع في اتجاه المذبح. ولكن بنت خالها ردت بدون تردد: «بالتأكيد» قالت «بالتأكيد» وسحبت من حقيبتها محفظة نقودها، وعدّت ورقتين بنيتين، وبهذا كما يبدو سددت الاشتراك، فموظفة المكتبة ابتسمت لها ولم تقل شيئًا بعد ذلك. ولم ينتهي الأمر عند ذلك، فقد سألت ميتكا وبدون لعثمة: «أود أن أطلب منك أن تبحثي لي عن بعض الكتب في الأحياء تتكلم عن الحياة في الماء».

استمعت السيدة موظفة المكتبة لها جيدًا ثم ردت بلطف:

«أنت تهتمين بعلم الأحياء أليس كذلك؟ فقد قرأت تقريبًا كل الكتب عن الطيور! وهل جاء الآن دور الحياة في الماء؟».

الحياة في الماء، ما أجمل هذا الكلام! فكرت تانيا بسرور. يا للعجب، تتفاهم ميتكا مع السيدة! وهما تعرفان الحياة في الهواء والحياة في الماء.

«قرأت عن البرمائيات»، واصلت ميتكا الكلام دون أن تخطئ في كلمة، «والآن بدأت أهتم بشدة بأنواع الحيوانات التي تعيش في

المياه العميقة».

«انتظـري لحظة» قالت السـيدة موظفة المكتبـة الممتلئة ذات العقيصة السـوداء بلون الغراب، ثم ذهبت إلى داخل المكتبة حيث تمتد الرفوف، رفوف بعدها رفوف ثم رفوف. بعض الكتب وضعت عاليًـا ولا يمكـن الوصول إليها إلا عن طريق السـلّم. هذا السـلم لا تستخدمه إلا موظفة المكتبة، هكذا قالت ميتكا لتانيا لاحقًا. لاحظت تانيا أن موظفة المكتبة لم تسـتخدم السلم أثناء البحث عن الكتب عـن الحياة في الماء, إذن من المؤكـد أن الكتب عن الماء تقع على الرفوف السـفلى، وتلك الكتب عن الطيور وأنـواع الحيوانات التي تعيش في الهواء على الرفوف العليا.

عادت موظفة المكتبة بعـد دقائق وهي تحمل معها ثلاثة كتب. واختـارت ميتكا مـن بينها كتابين, أحدهمـا بالصور والآخر بدون صور. ابتسمت الموظفة مرة أخرى وسجلت شيئًا في بطاقة ميتكا وأعادتها لها مع الكتب.

«شـكرًا جزيـلًا» قالت ميتـكا بفرح، «لقـد كنت لطيفـة جيدة سيدتي. مع السلامة».

«مع السلامة».

غادرت تانيـا المكتبة وفمها نصف مفتوح، أرادت أن تقول: مع السـلامة، ولكنها نطقت مـَ ... وفتحت فمها فقط وانتهى كل شيء عند هذا.

«والآن المكتبة أيضًا!» قالت الخادمة للمرة الثالثة أو الخامسـة، «لا أدري هـل نلـوم الهرمونـات أم مـاذا، فأنت تأتين كل أسـبوع

بشـيء؟ لقد أردت الذهاب إلـى الرياضة أيضًا، وإلى معسـكرات الكشـافة وغيـر ذلك.. وفوق ذلك لا أدري لمـاذا تقرئين إذا كنت لا تقولين شيئًا عما تقرئينه! انظري إلى ميتكا! هذه يمكن أن تحدثك بمحتـوى كل كتـاب قرأته وكل فلم شـاهدته، وتتحـدث بتفصيل وحيويـة حتى يبـدو لك أنك كنـت معها هناك.. والآن هيا اغسـلي وجهك وغيري ملابسـك حتى لا تتأخري، فلا يجوز أن تتأخري عن المدرسة.

قبـل أن تذهـب الأم إلى عملها أشـارت إلى الخادمـة ماذا يجب تلبس تانيا عند الذهاب إلى المدرسـة، ولكـن تانيا نزعت يدها من يد الخادمة عندما حاولت أخذها إلى غرفتها وتجهيزها للمدرسـة. وبعنـاد ظاهر في عينيها أبـرزت لها قصاصة جديـدة: "يمكنني أن أذهـب بمفردي!".. وضعت الخادمـة يدها على خصرها وقالت بضيـق: "حقًـا؟ إذن فقـد آن الأوان أن تكفـي عن اسـتخدام هذه القصاصـات". ولكن تانيا قطبت وجهها، فعلى الأقل لا تحتاج إلى قصاصـة للتعبير عن هـذا. كانت الخادمة على يقيـن من أن أكبر مشكلة في تربية الأطفال هو عنادهم الذي لا يجب تشجيعه.

تانيا لبسـت سـروالًا رماديًـا وقميصًـا من الحريـر ثم أخذت كراسـتها المليئة بالقصاصات وكتبت سـريعًا: "تانيا ش. شـارع أوسـوينا 4، فضلًا أريد أن أشـترك في عضويـة المكتبة". قصت القصاصة ووضعتهـا مع القصاصات الأخرى التـي تحملها دائمًا معهـا، ثم أخذت حقيبتها ودخلت المطبخ. لم تكن الخادمة راضية عندمـا جاءتهـا تانيا لتريهـا لباسـها. كان القميـص غير مكوي فاضطرت تانيا لخلعه حتى تنفضه الخادمة ثم تنشره على طاولة الكـي وتكويه جيدًا ثـم تنفضه مرة أخرى وتقدمه لتانيا لتلبسـه.

عندما لبست تانيا القميص الذي لا يزال يتصاعد منه بخار الكي عدلت الخادمة شعرها ووضعت حقيبة المدرسة على ظهرها. كانت تانيا على عتبة الباب عندما أسرعت الخادمة إليها جارية بمنشفة مبللة قائلة: "لقد اتسخت حقيبتك للمرة الثانية. قلنا لك ألا تضعيها على الأرض في المدرسة ولكن على الرف المعدني المعد لذلك بجانب التخت. حسنًا، اذهبي الآن!". وبما أن الخادمة مسحت أسفل حقيبتها بدقة وحول المقبض، فإن الساعة أصبحت تشير إلى الثانية ظهرًا عندما دخلت تانيا إلى الحديقة العامة. كانت تمشي بمفردها متجهة إلى المكتبة التي تجلس فيها إلى طاولة الاستقبال السيدة ذات الشعر المعقوص.

3

علمت أنها ستتأخر عن الدرس بوقت كبير، ولكنها لم تُبدِ أي قلق، لأنه في النهاية لم يكن بدٌ من فعل ذلك. فلم تكن تستطيع الذهاب إلى المكتبة قبل الدرس، لأنها لم تكن لتذهب إلى أي مكان قبل المدرسة. وفوق ذلك لم يكن أحد يتوقع منها الكثير في المدرسة. مشرفة الفصل قالت إن تانيا حالة خاصة بعض الشيء؛ لذا على زملائها وزميلاتها من التلاميذ ألا يسألوها وألا يقتحموا خصوصيتها. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح التلاميذ شديدي الحذر والاحتراز نحوها. حتى الطباخات في المدرسة كن يبتسمن لها ويُشرْن برءوسهن ويرسمن بأيديهن شكل التفاحة أو الموز في الهواء. وفي الأخير علامة استفهام! وما كان على تانيا إلا أن تشير برأسها وتحصل على ما تريد من الفواكه.

حتـى القصاصات لم تعد تحتاج لها، فالـكل هنا يتفهمونها ولا أحد يتدخل في شئونها. إلا أنها في بعض الأحيان تسمع الطباخات بعد أن يعطينها كل ما تريد من الفاكهة يقلن: "حقًا ما يقولون أن الطفل لا بد أن يكون نشـيطًا وإلا لما كان طفـلًا".. أو قد يناديها أحد الأطفال: "غريبـة"، أو "ذات القصاصات"، ولكن ذلك يحدث نادرًا. وهكذا كانت تعرف تمامًا أنه لن يسألها أحد ولن يجب عليها أن تكتب تقريرًا ولو تأخرت ساعتين عن الدرس.

لـذا توجهت نحو المكتبة مسـرورة بمفرده،ا ولـم يرافقها أحد حتى بتفكيره؛ لأنها لـم تخبر أحدًا إلى أين هي ذاهبة. ركزت تانيا تفكيرها علـى الكتب التي تود اسـتعارتها: "أود أن أطلب منك أن تبحثي لي عن كتاب حول الحقول الكبيرة يتكلم عن الذرة".. سوف تضع سـؤالها بلطف للسيدة التي تجلس في مكتب الاستقبال دون توقف، وسـتصاحب سـؤالها في البداية والنهاية بابتسامة. "أنت تهتميـن حقًا بالحقول يا تانيا، أليس كذلـك؟ فقد قرأتِ كل الكتب حـول الكمئيات (الفطريـات)، والآن هل أتـى دور الحبوب مصدر خبزنا اليومي؟"، سـوف تجيبها موظفة المكتبة بلطف أكثر. تانيا ستبتسم مرة أخرى وتقول بصوت مسموع: "قد قرأت عن البقدونس والجـزر، والآن بدأت أهتـم بالنباتات التي تنمو فـي الحقول عاليًا فوق الأرض". موظفة المكتبة سوف تقطب جبهتها وتفكر، ليراود تانيا القلق قليلًا ولكن سـرعان ما تسمع ردًّا جميلًا: "بالتأكيد، إذا انتظرت نصف ساعة سأحضر لك كل الكتب حول الأنواع التي تنمو فوق الأرض".. وتذهب السـيدة غريبة المنظر ذات الشـعر الأسود المعقـوص في الخلف إلى داخل المكتبـة، وتتابعها تانيا بعينيها، وكانت تشـاهدها أحيانًا وهي تتنقل بين الرفوف بنشـاط ودراية.

أخذت السلّم واعتلته بمهارة إلى القمة، ثم اعتلت أعلى رف وتمشت عليه وكانت تهز رأسها، ثم انتقلت إلى الرف الآخر. ولما تغلغلت إلى داخل المكتبة لم تستطع أن تتابعها بعينيها إلا عندما تنتقل من رف إلى آخر. كانت تراها حاملة مجموعة من الكتب، ولما مر نصف ساعة عادت إلى مكتب الاستقبال ووضعت على الطاولة خزينة من الكتب عن نباتات الحقول عاليًا فوق الأرض. تانيا قرأت بسرعة العناوين على حواف الكتب: "الحبوبيات العالية"، "مصادر الذرة"، "نشأة الحقول العالية"، "الفلاحة حول العالم". ولم ينتهِ الأمر عند ذلك، فقد كان عليها أن تسجل عضويتها وتسدد الاشتراك! (لم تكن تعرف إذا ما كان هذان الشيئان مرتبطين). "طبعًا بكل سرور!"، ستقول السيدة موظفة المكتبة عندما تقول لها تانيا إنها تريد أن تشترك في المكتبة. أخذت الموظفة من الدرج الضخم كرّاسًا كبيرًا وفتحته في منتصفه قائلة: "والآن أعطيني معلوماتك، فضلًا". ابتسمت تانيا مرة ثانية، بل ذكرت معلوماتها من خلال ابتسامة على وجهها: "تانيا ش. شارع أوسوينا 4، أريد أن أشترك في المكتبة، من فضلك". وفي خلال دقيقتين كانت تحمل في يدها بطاقة العضوية الرائعة وعليها اسمها ومعلومات عنها. وسجلت في البطاقة عناوين أربعة كتب استعارتها رغم أنه لا يمكن استعارة أكثر من ثلاثة كتب دفعة واحدة، ولكن الموظفة الودود أصرت أن عليها أن تستعير الكتب الأربعة كلها؛ لأنها كتب رائعة ومفيدة، ومن ثم ستكون خسارة قصوى إذا لم تقرأها.

استغرقت تانيا في التفكير في زيارتها لموظفة الاستقبال في المكتبة حتى إنها كادت أن تميل عن الطريق المؤدي خلال الحديقة العامة إلى قلعة المدينة حيث تقع المكتبة. توقفت عند

مقعد وأخرجت من جيبها مجموعة من القصاصات وذاكرت القصاصة التي تحمل رسالة عن الاشتراك ثم طوتها بعناية. كانت قريبة من المكتبة على الجهة الشرقية للقلعة، وكانت يداها ترتعشان. قد يكون من الأفضل لو انتظرت شهرًا حتى ترضى أمها وتأخذها إلى المكتبة. قد يكون من الأحسن لو انتظرت ميتكا التي كانت ستساعدها بمهارة في تسجيل الاشتراك. ولكن قد كانت مع ميتكا في المكتبة، والسيدة ذات الشعر المعقوص بالتأكيد لا زالت تتذكرها. أما الآن فلا وقت لهذه الخطط، فلم تعد تبعد عن الباب الرئيسي للقلعة إلا بضعة أمتار. قبل أن تمسك بيدها المقبض النحاسي (المزلاج) لباب مدخل القلعة الثقيل وتتعلق به، نظرت إلى شلة من الأطفال في ملعب القلعة تحت شجرة البلوط الكبيرة، كانوا يلعبون لعبة الاستغماية.. كان ولد في عمرها يترنح وعلى عينيه عصابة ويهوي بيديه في الهواء لعله يمسك أحدًا، أما الأطفال الآخرون فيقفزون ويمرحون أمامه وخلفه "أمسكني، أنا هنا خلف ظهرك!". كانت هي نفسها تلعب لعبة الاستغماية أحيانًا في باحة المدرسة، ولكن ذلك كان في السنة الأولى ثم لم تلعبها بعد ذلك. لم يحب الأطفال اللعب معها لأنها لم تكن تنطق بكلمة، ولم يستطع أحد أن يمسك بها وعيناه مربوطتان؛ لذا كان دورها فقط أن يربطوا عينيها ثم تحاول إمساك الآخرين، وذلك لم يكن يسرُّها أبدًا.

عندما دخلت إلى ممر واسع انزلق الباب من يدها وانغلق بارتطام مسموع؛ لذا ازدادت قلقًا. نظرت إلى اليمين فرأت بابًا مزخرفًا من الخشب الأسود يزهو في أعلى السلم. وضعت رجلها على الدرجة الأولى من السلم ثم أنصتت. إذا لم تتحرك هي كان الصمت تامًّا.

المكتبة في انتظارها الآن. سبع درجات، سبع خطوات وتصبح أمام بابها العظيم. حبست أنفاسها ورفعت يدها وضمت إصبعها السبابة ثم قرعت بها الباب بلطف. حبست أنفاسها مرة أخرى، الهدوء كان سائدًا تمامًا. ضمت إصبعها السبابة مرة أخرى وقرعت الباب ثانية بصوت أعلى ولعدة مرات. لم يرد أحد. أمسكت مزلاج الباب.. لم تعد تتذكر كيف دخلت مع ميتكا إلى المكتبة، هل كان عليهما أن يقرعا الباب أم لا! ولكن ميتكا لم تكن لتتردد، ميتكا كانت تعرف ما يمكن فعله، كانت ستقرع الباب بالطريقة المثلى، أو كانت ستدخل دون أن تقرع الباب وسوف تعلو كل الوجوه في الداخل ابتسامة تلقائية. ضغطت على المزلاج ثم سحبته إليها فأحدث الباب صريرًا، ولكن هذا ليس خطأها؛ لذا فتحته إلى آخره وألقت نظرة إلى الجهة الأخرى. في البداية لم تقع عيناها على أحد في داخل المكتبة، وكأنها الرفوف لا غير. ولكن عندما أمعنت النظر رأت السيدة الكبيرة اللطيفة ذات الشعر المعقوص التي تعرفها تجلس إلى طاولة الاستقبال.

رفعت موظفة المكتبة رأسها وأطالت النظر نحو الباب. تانيا أحست وكأنها أصبحت جسدًا واحدًا مع الباب؛ لذا أحست بالذنب لصريره. لهذا أرادت أن تصلح هذا الخطأ وتقول شيئًا ولكنها نسيت ماذا كانت تريد أن تقول، شيئًا عن الفلاحة أو الجو الصحو أو عن الرفوف، أن تقول شيئًا ما يفصلها عن الباب. ولكن كل ما فعلته هو أنها فتحت فاها قليلًا. ابتسمت السيدة القابعة خلف الطاولة الخشبية للحظة، أو على الأقل كان يبدو لها، ثم قالت لها: "هيا ادخلي وأغلقي الباب". تانيا أغلقت الباب بلباقة وبدا عليها الارتياح لأنها أخيرًا انفصلت عنه ودخلت. تركت الموظفة القلم

مـن يديها وكل عملهـا. تقدمت تانيا إلى القرب منها حتى تسـمع إحداهمـا الأخـرى جيدًا. كان السـكون مخيمًا تمامًـا. رفعت تانيا رأسها ونظرت إلى السيدة الجالسة خلف الطاولة ورأت في عينيها نوعًا من الشر.

"حسنا، ماذا تريدين؟" سألتها بدون ابتسامة.

حدثت تانيا نفسها: الآن ابتسمي واسأليها عن كتاب ما تريدينه، أو سـريعًا! سـريعًا! قولي لها إنك تريدين أن تشتركي في عضوية المكتبة، أو.. إن ميتكا...

الموظفـة: "ماذا يمكننـي أن أفعل لك؟ أنتِ لم تأتي للنزهة هنا، أليس كذلك؟".

تانيا : "...".

الموظفة: "أين الكتب التي تريدين إعادتها؟ هل تريدين استعارة كتب أخرى؟ في هذه الحالة أرجو ألّا يكون تبقى لديك أي كتب".

لا، لا، من غير الممكن أن تكون السيدة الودود تذكرتها كمرافقة لميتـكا، إنها لم تتذكر الفتاة التي لم تدخـل المكتبة من قبل والآن هي المرة الثانية التي تزورها.

"... الخير" تذكرت تانيا أنها لم تحيي السيدة منذ دخولها.

"ما ذا تريدين؟ هل تبحثين عن كتاب ما؟".

"...".

واصلت السيدة ذات الشعر الأسود كلامها وقد بدا الضيق عليها:

"أعطيني بطاقة العضوية أولًا ثم سأنظر في الأمر بنفسي".

اقتربت تانيا أكثر. وقفت بالقرب من طاولة الاستقبال تمامًا، لو انحنت وقبضت إصبعها السبابة لاستطاعت أن تقرع عليها.

"حسنًا. بطاقة العضوية!".

مدت تانيا يدها إلى جيبها وأخذت تبحث بعصبية. كانت نظرة الموظفة المرتابة ترشق أصابعها المرتجفة. بحثت عن قصاصة العار التي صاحبتها إلى المكتبة، والآن حتى هذه لا تجدها. ثم أدخلت يدها بعمق إلى داخل جيبها الأيمن وأخرجت قصاصة مطوية وكأنها ضفدعة ميتة من الشارع. ألقت نظرة بائسة على القصاصة - فقد كانت تعتقد أنها لن تحتاج إليها- وقدمتها إلى الموظفة، فنظرت إليها هذه متبرمة وكأنها تقول: "والآن ما هذا؟"، ولكنها أخذت القصاصة. أصابها الرعب عندما بدأت تفرد القصاصة وتسويها وقرأت بهمهمة: "همهمهم.. العنوان.. لا أستطيع قراءة هذا.. همهمهمهم.. من كتب هذا؟ هل هذا هو عنوانك؟".

هزت تانيا رأسها عدة مرات وهي فرحة لأنها على الأقل فعلت شيئًا، وبهذا أبدت اهتمامًا نحو هذه السيدة الكريمة.

"حسنًا" قالت لها سيدة الكتب وسحبت الآلة الكاتبة إلى القرب منها على الطاولة، "قولي لي أولًا، هل كنت عضوًا مشتركًا في أي وقت ما من قبل؟ قولي!".

"أي وقت" رددت تانيا بعض الكلمات لتعلن وجودها على الأقل.

"ومن أين لي أن أعرف أي وقت. أنا أسألك أنت طبعًا".

كحت تانيا وحمحمت ثم كحت مرة أخرى وفتحت فاها ولم ترد.

"ماذا؟ نغم أم لا؟" قالت موظفة المكتبة.

"هنا.. مع ميتكا... هممم".

"ماذا تقولين؟ هل عندك بطاقة عضوية؟ هل كانت عندك بطاقة في السابق؟".

"لا".

"عفوًا؟ تكلمي بصوت عال، فلا أحد نائم هنا!".

"..." ردت تانيا بالنفي بهزة من رأسها.

"أوه أوه" قالت موظفة المكتبة ووضعت بطاقة جديدة في الآلة الكاتبة وبدأت بالطباعة. كلما نظرت إلى الورقة البائسة لتنقل المعلومات منها قطبت وجهها بوضوح؛ لذا زاد ذلك من إحراج تانيا. ولو كان ممكنًا فإنها ستذهب إلى بيتها على التو، ولكن سوف تسبب بذلك إزعاجًا كبيرًا للسيدة التي تجلس إلى الطاولة. لو كان في الإمكان لاعتذرت ولكنها بذلك سوف تزعجها أثناء عملها. لا يزال هناك أمل. قد تتفاهم معها حول الكتب، وقد تندمج معها في حديث جذاب تمامًا كما حصل الأسبوع الماضي مع ميتكا. "سيدتي موظفة المكتبة، إذا لم أثقل عليك أريد أن أستعير كتابًا بلغة أجنبية" سوف تسأل تانيا بأدب. أما السيدة فسوف ترد: "بالتأكيد، طبعًا! من الأفضل أن تنظري بنفسك بالصف الثالث من اليسار على الرف الثاني وتختاري ما يعجبك". وبعد ذلك سوف تفتش بين كتب اللغات الأجنبية، وسوف تختار- كبداية ورغم إلحاح الموظفة- كتابًا باللغة الألمانية. ولكن بعد سنة واحدة قد

ترغب في استعارة كتابين على الأقل بلغة أجنبية إلى جانب الكتب التي تعتاد استعارتها. وقد تكون من القليلات اللائي يستعرن مثلك تلك الكتب، ولكن الكل سوف يعتاد على ذلك فهي معروفة في المدرسة بالغريبة.

"ها هي!".

انتبهت تانيا على صوت الطابعة عندما نزعت الموظفة البطاقة ووضعتها أمامها على الطاولة حتى تجف حروف الطباعة. استلمت تانيا البطاقة بجذل ونظرت بإعجاب إلى الخانات الفارغة التي تنتظر أن تسجل فيها الكتب الرائعة عن الفلاحة والنباتات العالية واللغات الأجنبية.

"الآن، ماذا بعد؟" سألتها السيدة الموظفة والضيق بادٍ عليها كما بدا لتانيا.

"نعم.. (حمحمت تانيا).. شكر...".

"سوف أبحث لك أنا عن شيء كبداية". قالت موظفة المكتبة ودخلت إلى الداخل السري ولكن لم تذهب بعيدًا ولم تأخذ وقتًا طويلًا، فقد أخذت كتابًا صغير الحجم من الصف الأول بالرف الثالث وأحضرته إلى الاستقبال. وضعته على المكتب وجلست بطريقة صاخبة وأمرت: "أعطيني البطاقة". وهكذا حصلت بطاقتها الجديدة على أول تسجيل، ولكن لماذا لا تشعر بالسرور؟ ثم أعادت البطاقة إليها من فوق المكتب. وعندما أمسكت هي بالبطاقة لم تفلتها الموظفة من يدها، ولكن قالت لها شارحة وبدون ابتسامة: "يمكنك استعارة الكتاب لمدة أسبوعين. أغلب

الكتب يمكن تجديد فترة استعارتها لمدة أسبوع، ولكن هذا الكتاب لا يمكـن تجديده لأنه خاص بالفصـول الأولى للابتدائية. يمكن أن تسـتعيري ثلاثة كتب على الأكثر. الاشـتراك يدفع إلـى أول يناير. يجب أن تحافظي على كتب المكتبة أكثر من كتبك. تفضلي".

كان هذا كل شيء. تركت الموظفة اللطيفة البطاقة لها ورجعت لعملهـا على المكتـب ولم تنظر إليها بعد ذلـك. تراجعت تانيا إلى الخلـف وهي تمشـي القهقـرى دون أن تنبس ببنت شـفة. كحت قليلًا وحمحمت للمرة الخامسـة حتى تصفي حنجرتها ولكن ذات العقيصة لم تتحرك. أمسـكت بمزلاج الباب ودفعته، وعندما ارتفع صفير الباب شـعرت وكأنهـا اتحدت به، خرجت ثـم أغلقت الباب ولكن بصوت عال بعض الشيء. وقفت أمام الباب المغلق والتقطت أنفاسها ثم انحنت بتهكم على ركبة واحدة وكأنها تريد رسم شارة الصليب ثم فتحت فاها متمتمة: "كنت لطيفة حقًا، إلى اللقاء!".

عندمـا عبرت ممر القصر البارد ومرت عبـر البوابة الكبيرة إلى الخـارج، جرت إلى أول مقعد بالقرب من ملعب الأطفال وجلسـت عليـه ثم فتحت أول كتاب تسـتعيره، والذي لم يكـن كتابًا حقيقيًا ولكـن كتيبًا لا تزيد صفحاته علـى الثلاثين، وحتى رائحته لم تكن هـي المعهودة، فلم تكـن له رائحة المعرفة فـي الكتب القديمة أو رائحـة الحموضة في الكتـب الجديدة، ولكن رائحـة بقايا الطعام الكريهـة. زاد حـزن تانيا كثيرًا عندما قرأت علـى الصفحة الأولى: "ألعـاب الأطفال". قد يكون من الأفضل أنها لم تذهب إلى المكتبة ولكن أن تجلس في هدوء في المدرسة. وبلا مبالاة تصفحت الكتاب وهي تنظر إلى الرسـومات غير الجميلة، رسومات أطفال يتزلجون أو يصنعون رجل الثلج أو يتطاردون أو يلعبون الاستغماية. وتحت

كل صـورة ثلاث أو أربع جمل عـن قواعد كل لعبة. وبعض الصور كانـت تتكلم عن الألعاب التـي يمكن أن يلعبها طفـل واحد فقط. وضعت تانيا الكتاب علـى المقعد. طفل واحد فقط؟ لماذا لم تكن موظفـة المكتبة اليوم كالعادة؟! لمـاذا لم تكن لطيفة معها؟ لماذا كانـت لطيفة مع ميتكا فقط؟ هناك شـيء ليـس على ما يرام. ولو جاءت مع ميتـكا إلى المكتبة لكانت الموظفة الجالسـة في مكتب الاسـتقبال سـجلتها دون تعقيدات، ولكانت سـتتحدث إلى ميتكا بلطافة. الكل يتكلم بلطافة مع ميتكا. لا، هناك شـيء غير صحيح. أدخلت تانيا يدها في جيبها لتأخذ المنديل - حتى بعد زيارة طبيب الأسـنان المؤلمة كانت أمها تقول لها اهدئي وخذي منديلًا- الذي أعطته إياها الخادمة، ومع المنديل سحبت تانيا قصاصة مطوية.

فتحت القصاصة دونما اهتمام. إنها القصاصة التي كتبت عليها فـي البيت " تانيا ش، شـارع أوسـوينا 4، فضلًا، أريد أن أسـجل اشـتراكًا في المكتبة".. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف يمكن أن توجد فـي جيبها هذه القصاصة التي كتبتها بشـكل خفي قبل أن تذهـب إلى المكتبة؟ مـن المفروض أن هـذه القصاصة بقيت مع موظفـة المكتبـة إلا إذا.. مدت تانيا يدها في هلـع إلى جيبها الذي تحمل فيه القصاصات ونثرتهـا على المقعد: "أنا جائعة"، "اليوم ليس لدي واجب في الرياضيات"، "هل يمكن أن أشاهد فيلم الساعة الثامنـة والنصف؟"، "أشـعر بالغثيـان بعد هذا الـدواء"، "ميتكا تقول إننا سنذهب إلى السينما"، "سيدتي المدرسة، تانيا لن تذهب إلـى الرحلة لأنها تتقيأ في الحافلة، إشـعار من أمها السـيدة ش". أي قصاصة ليسـت موجودة؟ مدت يدها إلـى جيبها الآخر ونثرت القصاصات كلها: "هل يمكن أن أذهب الى ميتكا؟"، "لقد سقطت

أثنـاء حصة الرياضة". "ماذا يحدث بحق السـماء؟"، "اكتشـاف العالم"، "يمكنني أن أذهب بمفردي". إذن فأي قصاصة بقيت عند موظفة المكتبة؟ من قامت الموظفة بتسجيل اشتراكه؟ ثم تذكرت وأخرجـت بطاقتها من الكتاب والتي كتب عليهـا: "عنواني: ميتكا ت، شارع فوكوفا 5"، هذه قصاصة كانت بنت عمها ميتكا أعطتها إياها. هذا عنـوان جدتها التي كانت تقضي عندها أيام العطلة. إنه العنـوان الـذي أعطته إياها ابنة عمها حتى ترسـل لها تانيا بطاقة معايدة بمناسـبة أعياد الميلاد ورأس السـنة!. كانت ميتكا حاذقة جـدًّا حتى إنها كانت تذهب في إجـازات. كانت بارعة حتى إنها لم تكن تقبـع أمام التلفزيون في أيام العطـلات. وكل مرة تذهب في إجازة تعطي تانيا عنوانهـا وكأنها تقول: "ليس من الصعب عليك الكتابـة، أليس كذلك يا تانيا؟" لا، ليس مـن الصعب على تانيا أن تكتـب، ولكن كل شـيء غير هذا كان من الصعـب أن تفعله بيدها أو تقوله بلسـانها. أما كتابة الرسـائل القصيـرة فقد كانت ميزتها الحقيقية؛ لذا لم تكن تُدعى سدًى ذات القصاصات.

إذن ميتـكا ت. هي التي اسـتعارت الكتيـب التعيس بما فيه من ألعاب الاسـتغماية وألعاب الاسـتخفاء. وميتـكا ت. هي التي يجب عليهـا إعادة الكتاب بعد أسـبوعين، فهي لن تسـتطيع تمديده. لن تسـتطيع، لأن الكتـاب مخصـص للسـنوات الأولي من المدرسـة. المرحلـة الدنيا ها، ها،ها! تانيا كتبت علـى عجلة قصاصة جديدة "ها ها ها!". ابنة عمها الحاذقة الماهرة في مستوى أطفال العاشرة وأصغر! مسحت تانيا دموعها، التي كانت في تلك اللحظة قد جفت تقريبًـا وأعادت المنديل إلى جيبها. قامت بتمزيق البطاقة الجديدة إلى قطع صغيرة ورمتها حولها، البعض في سـلة الزبالة والبعض

خلف ظهرها والبعض الآخر جعلته تحت قدميها وداستها في الطين. ثم مزقت كتيب الألعاب الصغير، مزقته ببطء ورقة ورقة. كانت هذه أجمل لعبة لطفل واحد. نشرت الصفحات على المقعد واختارت تلك التي تحمل ألعابًا شيقة وصورًا غير كريهة. عندما اختارت ثماني صور مع التعليمات أخذت الصفحات المنزوعة وعلقتها أو ثبتتها على أغصان الشجر، ثم أصدرت صفيرًا حادًا وجرت إلى بيتها.

كانت مجموعة من الأطفال في الملعب يلعبون الاستغماية تحت شجرة البلوط إلى أن أزعجهم الصفير الحاد.

4

عندما دخلت تانيا ذات القصاصات إلى الحديقة العامة، كانت الساعة لا تتجاوز الثانية ظهرًا. كانت تخطو نحو القصر القديم بسماعة الوكمان في أذنيها. لقد مر عليها زمن وهي تعمل في المكتبة، ولكن لا تتذكر تمامًا كم سنة. تعمل كباحثة عن الكتب، تبحث عن الكتب كل يوم. تحمل في أحد جيوبها قصاصات للزائرات والزائرين في المكتبة: "البحث جارٍ"، "مستعار"، "لا يوجد لدينا"، "التسجيل والتمديد عند المكتب الذي عليه الحاسوب"، "فقط للقراءة في قاعة المكتبة". وإذا تعرف عليها أحد أنها ذات القصاصات ابنة عمة ميتكا تسحب على التو من جيبها اليمين قصاصة مكتوبًا عليها : "ها، ها، ها!".

خلف المقعد

حملت إيرميتسا وفيتكا ذات يوم محفظة نقود وجدتاها إلى قسم الشـرطة. حينئذ أحببتُ أن أذهب معهمـا لأنني كنت معهما عندما وجدنا المحفظة. وفي الحقيقة كانت إيرميتسا هي التي رأتها أولًا، ولكن وجدناها نحن الثلاث. «اتركيها!» صرخت إيرميتسـا تنهرني وفيتـكا، ثـم التقطـت الغنيمة التي لـم يكن بها نقـود وليس فيها إلا بطاقـة الهوية ورخصة القيادة لرجل متقدم في السـن، بعض بطاقات زيارة لبعض الشركات، وثلاثة أزرار بيضاء عادية.

قلت: "لا توجد نقود".

"يمكـن أن يكون قد أخذها أحد" قالت فيتكا، "ولكن الوثائق لا زالت هنا".

"بالرغـم مـن ذلـك يجـب أن نأخذها إلـى الشـرطة!" جاء رد إيرميتسا في انفعال والتفتت إلى فيتكا قائلة: "هيا بنا نذهب!".

وجرتا بسرعة حتى دون أن تقولا مع السلامة. لقد ذهبتا حقًّا إلى الشرطة، وهناك سجلوا أسماءهما وشكروهما على أمانتهما!. كيف يمكن أن تشكر إيرميتسا وفيتكا على أمانتهما؟ أي خطأ هذا؟! هذه المـرة الثانية التي تهربان مني دون سـبب. أول مرة عندما وجدنا في موقف السـيارات أمام المدرسة سيارة قد قطعت عجلاتها وهو

ما استوجب إبلاغ الشرطة. جريت إلى دواليب الملابس بالمدرسة حتى أغير ملابسي وحذائي، ولمَّا رجعت إلى موقف السيارات كانت إيرميتسا وفيتكا قد اختفتا في غدر. وهكذا للمرة الثانية لم أفلح في الذهاب إلى الشرطة.

وبعد فترة وأنا وحدي في طريقي إلى المدرسة فجأة جاء دوري دون شهود. حدث ذلك ذات يوم عندما وطئت قدماي الفناء الداخلي الذي يحيط بفيلا مهجورة وقد غطته العشب والحشائش، حتى أخلع جواربي الداخلية، فقد كانت تصيبني بالحكة الشديدة في بداية الصيف. جلست على المقعد الحجري، وبارتياح سحبت الجوارب السميكة من أرجلي، وكالعادة فإني مزقتها بعض الشيء؛ لذا فإني لن ألبسها بعد ذلك.

كان ثمة شيء هناك خلف ذلك المقعد الحجري القديم الذي كانت تنبت من خلال شقوقه الأعشاب. أدرت رأسي قليلًا إلى الخلف. خلف المقعد شيء كبير ملقى على الأرض. في البداية لم أكن أتوقع مفاجأة، حيث إنه كثيرًا ما تُلقى أشياء على الأرض عادة كإطارات السيارات القديمة أو أجزاء من جسم السيارة التي لم تكن مهمة لا للشرطة ولا للذي يعثر عليها. أقعيت حتى أنظر إلى ذلك الشيء بدقة من تحت المقعد. أول ما وقعت عيناي عليه كانت رجلي امرأة عاريتين. الأولى يغطي قدمها حذاء بني بكعب نصف عال ممزق كان يجب إبداله عند الإسكافي منذ فترة، والثانية عارية القدم مليئة بثآليل القدم مثل تلك التي كانت جدتي تقطعها بسكين تقشير الثوم أثناء الطبخ. تحت الركبة الثانية رأيت قطرة حمراء انسابت واختفت تحت تنورة زرقاء من قماش سيئ يقال عنه إنه من الصعب غسله. قمت ووقفت على المقعد حتى أنظر

إلـى هذا المنظـر بالكامل من أعلى. هناك كانت دوريتسـا النحيلة مسـتلقية. كنا نسـميها العُصَيَّة. كانت ذات خصوصية، كانت أكبر منا قليلًا، وكما يقال فإنها كانت أفضل تلميذة بالمدرسـة الخاصة بالتلاميذ ذوي الاحتياجات الخاصة. ولكن في بعض الأحيان يطفح بها الكيل فتأتي إلى المدرسـة في كامل زينتها وكأنها شجرة عيد الميـلاد، ويقال إنها كانت مقابل دينارين تكشـف عورتها للفتيان من المدارس العادية. ولكن تحت لباسها لم يكن هناك صدر، فهي مـن عائلة "العصي" التـي تحوي بجانب أبويهـا النحيلين اللذين كانا ينظفان الحدائق والمسـطحات الخضـراء في المدينة، أخوين توأميـن نحيليـن يختلفان عنها بأنهمـا لم يكونا مثلهـا معتوهين تمامًا. كانـت "العصيَّة" معتوهة لأنها كانت تفعـل أفعالًا جنونية باسـتمرار، وكانت في مدرسـة خاصة حتى وإن كانت ممتازة في دراسـتها. ذهبـت ذات يـوم إلى أمسـية راقصة لتلاميذ المدرسـة الثانويـة، في منتصـف الحفلة دخلـت القاعة، وهو أمـر لا يجرؤ أي تلميـذ من المـدارس الابتدائيـة على فعله، فكيـف بتلميذة من المدرسة الخاصة بذوي الاحتياجات الخاصة؟! وصلت "العصيَّة" في قميص الاسـتحمام الذي تسـتخدمه أمها وعلى رأسها لفافات الشعر. قالت لحارس المدرسة إنها تبحث عن أخويها الكبيرين لأن أبويها قد أصيبا بالجلطة. سـألها الحارس عمـا إذا أصيب والداها معًا في نفس المساء بالجلطة فضحكت "العصية" وقالت إن أباها الـذي أصيب أولًا ثـم ارتدَّت الجلطة إلى أمهـا وأصيبت هي أيضًا. عندما أدخلها الحارس إلى القاعة التي تفوح منها إلى جانب رائحة العـرق والأكل روائح عطـور الكولونيا الرخيصة، أخـذت النحيلة تصرخ وتجري من الفرح بأنها سوف تعثر على صديق تتواعد معه كل أسبوع على الرقص. حاولت الفتيات إخراجها من القاعة، وفي

الحقيقة أردن أن يتخلصن منها بالقوة وبسرعة، لأنها اجتذبت الكثير من اهتمام الفتيان الذين كانوا يضحكون ويقدم كل واحد منهم نفسه على أنه صديقها الحقيقي، ونسوا زميلاتهم اللاتي لم يكنَّ أيضًا مميزات.

لا أدري ما حدث بعد ذلك؛ لأنه لم يستطع أحد أن يحكي الحكاية إلى نهايتها، لأنه في الحقيقة لم يكن أحد من تلاميذ فصلنا هناك.

أما الآن فمن المؤكد أن "العصيَّة" مستلقية أمامي وفي وضع لم يرها فيه أحد. تلفت حولي ونظرت إلى الشارع: لا يوجد أحد، وبالأخص إيرميتسا وفيتكا اللتان، على الأقل مرة واحدة، لن تستطيعا التفاخر بعدد الساعات التي قضينها في قسم الشرطة وهما جالستان تشربان الماء، وكم مرة اضطرتا إلى إعادة قصتهما التي حواها سجل من عدة صفحات مرقمة بأسمائهما "فيتكا وايرميتسا واحد"، "فيتكا وإيرميتسا اثنين" وهكذا إلى "فيتكا وإيرميتسا مائة" على الأقل. لقد انتصرت هذه المرة في العثور على الأشياء المفقودة. لا يمكن للعصية أن تجد مكانًا أفضل من هذا للاستلقاء، فإنه لن يجدها أحد حتى ولو بالصدفة. تحولت الحديقة التي تحيط بالبيت مع السنين إلى غابة تقريبًا. لا يمكن رؤية أي شيء من الشارع غير الحشائش والعشب النامي والشجر المهجور الذي عادة ما يرى الناس فيه مأوى للحيات، لذا فهم يبتعدون عنه؛ لأنك من لدغة الحية تصبح محمرًا ومعتوهًا وفي الأخير ميتًا. كان المقعد الحجري الذي تنام خلفه العصية يمثل ساترًا أمام أعين المارة وفضولهم. دُرْتُ مرة أخرى حول المعقد وأنا أنظر إلى المستلقية. إنها حقًّا مخفية عن الأعين الفضولية. كانت شاحبة

اللون حتى إنه يمكن أن نسميها دورا وليس دوريتسا([1]).

ذلك اليـوم تأخـرت لأول مرة عن المدرسـة. إيرميتسـا وفيتكا قـد أخبرتـا عن غيابـي بالتأكيد، ولكن لـم يكن ذلـك يهمني. لقد أغضبتهما بالأمس بعد المدرسـة عندما رفضت الذهاب معهما إلى الحديقـة العامة لتدخين بعض السـجائر والبحـث عن المفقودات التي نسـتولي عليها بعد ذلك. قلت لهما بتعـالٍ إنني لا بد أن أعود إلى منزلنا بعد المدرسة.

"وأيـن بيتكم الآن بالتحديـد، إذا كان من الممكن أن أسـألك؟" سألتني فجأة إيرميتسا. نظرت إليها نظرة فاحصة محاولة التقاط مرحهـا اللعـوب المميـز. ولكن فـي عينيها لم يكن غيـر الفضول الخالص.

"أعني..." واصلت إيرميتسـا بحذر، "بما أنـك ذهبت في المرة الأخيـرة فـي اتجاه وسـط المدينة، أعني، أني سـمعت شـيئًا عن الطلاق...".

"حقًّا" قاطعتها حتى لا أسـمعها تواصل كلامها. "هذا الأسبوع لن أذهب في اتجاه وسـط المدينة، ولكن سأذهب ثانية إلى جدتي في البيت".

وفـي عجلة وضعتُ حقيبتي على ظهري، وعلى كل حال قبل أن أذهب التفت إليها قائلة: "لا تتدخلي في شئون الآخرين".

الطريـق إلى جدتي يمـر بجانب الفيـلا المهجـورة وحديقتها

-1 دوريتسا تصغير لاسم دورا.

المغطاة بالحشائش العالية، ولحسن الحظ لا يشاركني أحد من المدرسة في طريقي هذه. وكأني كنت أستشعر الفرص التي يمكن أن تخفيها هذه الحديقة؛ لذا لم أُطْلِع عليها أحدًا حتى إيرميتسا وفيتكا.

"من يكشف ما معه، سريعًا ما يفقده"، هكذا كانت تقول جدتي. وهكذا قالت لي البارحة عندما رجعت إليها بعد المدرسة وأحببت أن أُريها دفتر الرسم الذي حصلت عليه من النمسا. وكانت تنتظرني خمس عشرة دقيقة وأمامها الشوربة على طاولة الأكل. وهكذا كانت معكرة المزاج منذ أن لم يعد يحضر أحد إلى مائدة الطعام عندها غيري، وحتى ذلك في أيام محددة فقط كل أسبوعين أو ثلاثة. قبل طلاق أمي من أبي، وعندما عدنا أنا وأمي من غرفة بالإيجار إلى بيتنا الذي كان يجمعنا. جدتي لم تعد تستطيع طبخ الشوربة بنفسها؛ لأنها بعد الجلطة الدماغية التي أصابتها لم تستطع الإمساك بالقدور. لذا فكان الطعام يأتي من أحد الجيران أو من المطعم الجديد الذي كان يطلق عليه التغذية الاجتماعية. وهكذا كانت معكرة المزاج لسبب ما، لأنني كنت آتيها متأخرة، ولذا كانت الشوربة دومًا باردة. ولأن هؤلاء في مطعم التغذية الاجتماعية مهملون ويأتون متأخرين، أو لأن الجارة لم تطبخ المكرونة جيدًا.

كنت أردت أن أكذب كيف أنني فرحة لأني عدت إلى "بيتي" القديم وليس في غرفة بالإيجار، ولكن جدتي أشارت إليَّ بيدها السليمة أن أبدأ بالأكل في الحال، لأن كل الطعام أصبح باردًا لدرجة أنه يمكن أن يصيب معدتنا بالبرد. بدأنا في رشف الشوربة في صمت، ثم تحولنا إلى أكل اللحم البقري "الاجتماعي" القاسي مع الفجل الحار اللذيذ حتى إني كنت أنفخ وألوي سحنتي بتلذذ.

"لا يجب عليك أن تأكلي الفجل كله" قالت جدتي.

"يجب، يجب" رددت عليها في نغمة العجزة الذين يتفلسفون أنهم يعانون ويعيشون كيفما يريد الآخرون.

"إنهم يضعون كثيرًا من الفجل حتى يسهل مضغ هذا اللحم القاسي والذي لا طعم له" كان رد جدتي.

"إنه ليس قاسيًا جدًّا" رددت عليها مثل شخص قد تأقلم على المعاناة في السماء والأرض.

"كيف كان يومك في المدرسة؟".

"لا أدري!".

"هل ستأتي أمك اليوم لتنام هنا في البيت؟".

"لا أدري!".

"آخ" هزت رأسها وقالت وكأنها تحدث نفسها: "وأنت ما أدراك بشيء؟".

وضعت الشوكة والسكين على المائدة وأبعدت الطبق الذي لا يزال مليئًا.

"لماذا تنظرين في الفراغ؟ هنا كلي أكثر قليلًا. رغم أنه ليس مطبوخًا في بيتنا. هل تعلمين أن هناك بعض الأطفال ترعرعوا على التغذية الاجتماعية؟"، ردت جدتي غاضبة ثم دفعت طبقها هي أيضًا.

وكالعادة كنت أول من ترك المائدة وحملت الأطباق، ووضعت

كل الأوعية الوسخة في حوض الغسيل. وفي الحقيقة لا أعلم ماذا يحدث للأوعية حتى تصبح نظيفة مرة أخرى منذ لم يعد هناك أحد يغسلها بانتظام.

"لمن الفيلا المهجورة مع حديقتها؟ تلك التي تقع بالقرب من سكة الحديد؟". سألتها أثناء ترتيبي للأوعية في حوض الغسيل.

"إذا كانت مهجورة فهي ليست ملك أحد".

"إذن فهي ليست لأحد؟".

"لا يوجد مثل هذه البيوت، ولا تذهبي هناك. العشب والحشائش تغطي كل شيء بسبب الإهمال".

"ولكنني لا أذهب هناك".

"إنها مليئة بالحيات السامة والزواحف".

ولكني كنت أمر بجانب هذا البيت، وكثيرًا ما أعرِّج على الحديقة. غير أنه لا يمكن الدخول إلى البيت، فقد كانت درجات السلّم محطمة تقريبًا، ولم أعثر على أي شيء هناك قَطّ. أما الآن فهاهنا تجثم "العصية" ملقاة خلف المقعد. هل كانت تدري يا ترى عن هذا البيت؟.

بعد الغداء أدخل غرفة النوم رغم أنها باردة، لأننا لا نوقد الموقد أثناء النهار بسبب ارتفاع سعر الوقود، ثم أكتب الواجب المدرسي. وفي الحقيقة ذلك اليوم لم يكن هناك واجب، ولكني لا أحب أن أجلس في المطبخ وأستمع للملاحظات كأن أستقيم جالسة إلى الطاولة عندما أكتب وإلا سوف أصبح مقوسة الظهر. عندما أجلس

بمفردي في غرفة نوم والديّ السابقة، بعود الثقاب أوقد التدفئة على الزيت وأدير الزر على اثنين أو ثلاثة حتى يستقر اللهب، ثم أجلس وأحملق في المربعات الفارغة حيث كانت صورنا العائلية معلقة قبل وقت قصير، ثم أقوم وأدير الزر إلى رقم ستة. لم يكن يسمح لي أن أوقد الموقد قبل هبوط الظلام، ولكن منذ أسابيع وفي الأيام التي أقضيها في هذا البيت أدير الزر إلى رقم ستة بكل سرور. ثم أجلس إلى الطاولة وآخذ الكراسة وقلم رصاص عاديًّا له ممسحة على طرفه وأحك أذني بهذا الطرف. وبعد قليل أقوم مرة أخرى وأفتح غطاء خزان الوقود الزيتي وأسحب نفسًا عميقًا من الخزان المليء.

آخذ كراس الرسم الجديد من حقيبتي وأجلس على المقعد الحجري وأنحني عميقًا على الصفحة الفارغة حتى إني قد أصبح مقوسة الظهر عند نهاية المدرسة، وإذا لم يكن من الممكن إصلاح ذلك في الكبر فإن الناس سوف يعرفونني بتلك "الشمطاء المقوسة" كما قد تنبأ جدي. أبدأ في رسم المقعد الذي أجلس عليه وخلف المقعد رجلان نسائيتان ناعمتان مستقيمتان، تركت الركبة والمؤخرة والكتف، وهو ما لا يظهر من خلف المقعد، وفوق ذلك فإني لا أستطيع رسمها، ولكن استطعت أن أرسم وحتى ألوّن خصلة الشعر القمحية والأيدي الوسخة والتي تحمل دائمًا كثيرًا من الأظافر نصف المطلية والمشوهة. وفي الركن السفلي إلى اليمين أكتب: "عصية رقم واحد".

في الصباح حلمت أن أمي لم تعد بعد من العمل، وأن جدتي أصيبت بالجلطة في الجانب السليم من جسمها. عندما جاءت أمي الأسبوع الماضي من عملها استيقظت من النوم ودخلت الحمام ثم

لقيت جدي في الممر. عندما أغلق باب غرفة نومه لاحظت أنه بدون إحدى رجليه، بدون الرجل التي أصيبت بالسرطان، ولكني نظرت جانبًا وتظاهرت باللامبالاة وسألته كيف الجو في غرفته. فردَّ أن الجو في الجانب الآخر تمامًا مثل هذا الجانب، ولكن على الأقل رجله لم تعد تؤلمه. أحسست بالخجل لأني لم أسأله عن رجله، ولكن عوضًا عن ذلك تكلمت كلامًا آخر، وهكذا فإني قد أخطأت. عندها شعرت بأني في حلم، وحدثت جدي بذلك فردَّ أن الآخرين أيضًا يرونه في الحلم، وأنهم سوف يستيقظون في الحال.

قلبت صفحة جديدة في كراسة الرسم وبدأت أجرّ، وبدون صوت سن قلم الرصاص الناعمة بـ5. كانت إيرميتسا تقول إن القلم بـ6 زائد النعومة وكأنها أصلًا تعرف شيئًا عن أقلام الرصاص.

عندما توفي جدي في المستشفى أعلنوا بمكبر الصوت في المدرسة أنه يجب تعزيتي أنا التلميذة التي "لا غنى عنها". كنت أبكي لأني لم يكن لدي فستان أسود. (لذا وإلى اليوم أحمل شريطًا أسود على ياقة قميصي). ذهبت إلى الجنازة في تنورة سوداء معارة وقميص وردي اللون، وكان ذلك لباس الفتيات الشابات. ولكن بعد فترة رأيت في الصور الفوتوغرافية للجنازة كيف كان لباسي المستعار غير مناسب، حيث إن القميص الوردي كان يبرز بين موكب المشيعين الذي كان يتحرك حزينًا خلف نعش جدي. هناك وفي نهاية طابور المشيعين الحزين يبرز شخص "العصية"! في فستان إلى الركبة سماوي اللون. بيدٍ واحدة كانت تعدل الرباط الأحمر الذي كان يربط شعرها القمحي في خصلة مهملة على شكل ذيل حصان، وباليد الأخرى تمسك بمرفق أمها كفتاة من ذوات الاحتياجات الخاصة. كانت أمها في تلك الأيام

عاملة تنظف وتغسل مكان غسيل الموتى وما حواليه. كرهت "العصية" المجنونة في صورة الجنازة العائلية. نعم، كل من نظر إلى تلك الصورة، وهي تذكار عزيز لجدي، لم أسمح له بأن يقول إن "العصية" هناك. كل ما يمكنه القول هو أن الجنازة كانت كبيرة ومهيبة حتى إن "المسكينة دوريتسا المعتوهة" كانت من الحاضرين. لم أستطع قَطّ أن أتقبل أن يكون لهذه المخلوقة فجأة أهمية وتأثير على الصورة العائلية، التي كانت بارزة فيها بنفس القوة التي برزت أنا بها بقميصي الوردي وتنورتي الواسعة.

أخذت كراسة الرسم ورسمتها كيف تستلقي خلف المقعد ورأسها فارغ لم يَبْقَ به شيء البتة. رسمت خصلة شعرها القمحي على شكل ذيل حصان أشعث، وهو ما يعتبر في الحقيقة جزءًا خارجيًّا للرأس. أما المقعد فقد رسمته بصورة أجمل والخضرة حوله وبها تعشش الحيات. حتى العناكب تبدو وهي تدب على الأرض. تحت المقعد تتحرك حشرات أبو مقص التي خلقت لتنسلّ وتدخل كل الفتحات في الإنسان. وقد تبقى إحدى هذه الدواب في أذنك طيلة الشتاء دون أن تشعر.

تذكرت ذلك اللقاء. كنا قادمين أنا وإيرميتسا وفيتكا من دار السينما، وكنا نحمل في أيدينا جيلاتي. حدث ذلك ذات يوم بعد أن أخذت إيرميتسا وفيتكا المحفظة إلى الشرطة، في أحد الأيام الهادئة التي لم نعثر فيها على شيء، عند بداية التقاطع الذي يحمل أول إشارة مرور في مدينتنا رأينا "العصيّة" على الجانب الآخر للشارع مع أخويها التوأمين اللذين كانا دائمًا يحيطان بها كل من جانب، وكأنهم قالوا لهم في بيتهم إنهم إذا اتخذوا ترتيبًا آخر عند المشي فإن أختهم المعتوهة سوف تقوم بأفعال جنونية. أنيرت

الإشارة الخضراء للمشاة فمشينا نقطع الشارع نحن الثلاث نتبختر ونحمل الجيلاتي أمام أفواهنا. وأثناء ذلك كنا نشير خفية برءوسنا إلى الثلاثي النحيل المعتوه كحشرات أبو مقص، وبأصابعنا السبابة نحفر دوائر على جانب رءوسنا، في إشارة إلى الجنون، نضحك وتغمز إحدانا الأخرى كعادتنا عندما نرى شخصًا غريبًا مميزًا. وفي وسط التقاطع وقفت "العصيّة" وابتسمت ابتسامة عريضة عن أسنان فأر مدببة، وهو ما ينبئ عن أنها مُقْدِمة على أمر جنوني يجلب تسلية مخجلة لنا وللمارة. كان أخواها يتابعان المشهد في توتر وكأنهما يقدِّران اللحظة التي يجب فيها التدخل: يجب تهدئتها أو الدفاع عنها ضد الآخرين. تقدمت "العصيّة" إلى الأمام قليلًا ثم صرخت في اتجاهنا نحن الثلاثة: "يوم سعيد، أنت تلعقين الجيلاتي!".

ضحكنا أكثر مما يجب، وضربت إحدانا الأخرى على كتفها ونحن نصرخ. وأثناء ذلك سقط جزء من جيلاتي فيتكا على الأرض، ولكن ذلك لم يؤثر بل زاد في ضحكنا. وبعد ذلك تغيرت العصية وأبدت ملامح جادة وهي تشير بإصبعها إليَّ قائلة: "انظروا، انظروا، إنها هي التي سممت جدها!". التفت عديد من المارة، ليس لأنهم كانوا يصدقون دوريتسا المجنونة، ولكن لأن حيرتي وارتباكي المرعبين خيَّما على كل المكان هناك. وعندما سحبها أخواها إلى الجانب الآخر من الشارع التفتت مرة أخرى وصرخت نحوي: "إنها هي، سم، سم!".

تأوهت إيرميتسا وفيتكا وأخذت إحداهما بيدي ثم جرينا معًا كلنا إلى الجانب الآخر للشارع متجنبين العصيات النحيلات المعتوهات من بعيد. وحتى بعد أن دخلنا إلى الشارع التالي محاولين التغطية

على ارتباكي الشـامل وارتياعنا المشـترك بحكايات أخرى مسلية، كنا لا زلنا نسمع ضحكات العصية كصفير عالي النبرة.

لما بدأت الحشـرات تدب على رقبتي قمت بسـرعة ووقفت على المقعـد الحجـري، ولاحظت أن الـدم على رجل العصيـة قد تغير لونه. وضعت كراسـة الرسـم الجديدة في المحفظة، وكانت يداي ترتجفـان مثـل أولئك الكبـار الذي ينوون فعل شـيء بأنفسـهم. أخذت نفسًـا عميقًا ثم وفي خُطًى طويلة وسريعة غادرت الحديقة المغطاة بالحشـائش. كانت جدتي تقول: العلامات الشريرة دائمًا تتعقب الشخص.

قامت الشـرطة بوضع شـريط حول المقعد كتـب عليه: "قف! شـرطة". عندها سـمعت من يقول بصوت منخفض: دعوا الطفلة تهدأ وتسـترجع جأشها. سـمعت أيضًا كلمات عن الجثة والفتيان والكحول وعن المساحات السـكنية المهملة بالمدينة. كان الدرس بالمدرسـة قد انتهى منذ فتـرة، ولم يكن أمامي إلا حسـرتي على إيرميتسا وفيتكا اللتين لم تكونا تعرفان شيئًا عن هذه الحديقة ولم تستطيعا المرور هنا لتريا ما عثرتُ عليه.

"أعد كراسـة الرسم للطفلة" قال شـرطي للآخر، "فلتذهب إلى بيتها لتستعيد هدوءها بين أهلها".

من ثالث سيارة للشرطة وصلت إلى الطريق المؤدي إلى الفيلا، سـحبت جدتي نفسـها بصعوبة. رفعـت قبضتي يديها السـليمة والمصابة عاليًا وهي تدمدم: "كنت أعلم أن هذا سيحدث!".

أمـا أنا فأخذت كراسـة الرسـم ووضعـت حقيبتي المدرسية على ظهري، وذهبت نحو وسـط المدينة إلـى بيتي الآخر إلى غير رجعة. ولم أعلم بعدها أبدًا من المسـئول عمَّا كانت جدتي تعلم أنه سيحدث، أنا أم "العصيّة".

وتعود الصور (الأشباح)

كان ذلك عصر يوم من أيام الشتاء. عندما يكون الظل طويلًا. تذكرت مرة أخرى زياراتي لجدتي. تذكرت الرائحة الزكية التي تعم المطبخ عندما تُطحن حبوب القهوة في الطاحونة اليدوية القديمة. تذكرت طقطقة قطع الحطب في موقد المطبخ، زجاج النوافذ المبلل في ليالي الشتاء. كثيرًا ما كانت تتردد قارئة الفنجان كريستينا والأرملة ذات الثؤلول يادا. عندما كانتا تأتيان وتنتشر في المطبخ روائح عزلة الشيخوخة ورائحة معاطف الشتاء التي لم تُهَوَّ، تنسى جدتي المصاعب التي تسببها لها معدتها. وكانت لا تغضب حتى على القطط التي كانت تتسلل إلى المطبخ وتستلقي إلى جانب الموقد، أما أنا فكان دود الخوف يقرض قلبي.

كانت الضيفتان تتقدمان نحو الموقد أول ما تدخلان المطبخ وهما متوردتان وترتعشان من برد ديسمبر، تدفئان يديهما فوقه ثم تتركان جدتي تترجاهما طويلًا وتطلب منهما البقاء في زيارة طويلة. ثم كانت جدتي تأخذ معطفيهما الثقيلين بإصرار ثم الشالين المزخرفين والقفازات المهترئة التي ابتاعتاها في عام 1948 من فيينا ولا تزال، كما يقال، تسبغ الدفء على يديهما كما كانت من قبل؛ لذا فإنهما لا تريدان قفازات جديدة لأنها بالتأكيد لا تساوي شيئًا. جلست كريستينا وهي تحتضن حقيبتها إلى جانب

النافـذة، وكانت قـد أكدت أنها لا تتأثر بأي هـواء يحتمل أن يهب، لأنها منذ طفولتها تعودت على الشـتاء القارس والتوفير في خشب الوقود. مسحت أم الثؤلول يادا على رأسي في البداية ثم حضنتني فـي حضنها العفن حتى إني عبسـت بوجهي. ولمـا تركتني أخيرًا نظرت إلي وجهها المبتسـم وقد اعتراني شـعور غريب عند النظر إلى الثؤلول على جفنها والذي يكاد يغطي عينها.

ألمحـت لي جدتـي بخفية أن أجلـس على الصندوق الخشـبي الذي يحوي خشب الوقود - لأن الأطفال هم الوحيدون الذي يسمح لهـم بالجلوس علـى المقاعد الصلبـة- وأن أطحن حبـوب القهوة للضيفتين. فهمت تمامًا أمرها الخفي هذا: إذا أردت أن أسـتمع إلى حديثهـم كان عليَّ أن أجلس كطفل هـادئ لا يثير الانتباه. صعدت على الكرسي لآخذ مطحنة القهوة من على قمة الدولاب، ثم جلست علـى الصندوق القديم الخشـن إلـى جانب البـاب وأخذت أطحن الحبات السـوداء زكية الرائحة. وأثناء عمليـة الطحن الرتيب كنت أحملق في أثر الأقدام المبللة التي تركتها الضيفتان العجوزان على أرضية المطبخ.

«ولا تنظـري بعبوس أبدًا إلى الدنيا» قالت لي جدتي بعتاب، لأن معاتبة الأطفال أمام الزوار كان ولسـبب غريب برهانًا على إظهار الاحترام لهم.. «كريسـتينا ويـادا هما ضيفتانـا القديمتان. عندما جئت إلى الدنيا حملتاك وأعطتاك اسمك».. رفعت كتفي إشارة إلى اللامبـالاة، فإن ذلك لم يكن يهمني. لقد عرفت أناسًـا كثيرًا، زوارًا وأقـارب بعيدين وقريبين، وحتى الجارات الثرثارات يمكن أن يكنَّ قد أعطينني اسمي.

«لذا لا تنظري بهـذه الطريقة» قالت جدتي ولم ترد أن تتوقف، «عندما تكبرين وتكون عرابتاك قد توفيتا سوف تشعرين بالندم».

ومع الكلمات الأخيرة رنة ضحكاتهن. كريستينا كانت تضع يدها على فمها لتحجب ما سقط من أسنانها، أما يادا فقد كانت تضحك بحرية بدون أسـنان منذ سنوات طويلة. رغم أن كلمة «الندم» بدت لـي كنوع من التهديـد. تهديد بالانطباع في الصـور. الصور التي تأتـي في الليل وتختفي كما تهوَى دون أن تدري في أول وهلة من أين، حتى تبدأ تعي أنه في كل فعل تفعله أنت أو أحد آخر، في كل كلمـة عابرة تقال، فـي كل ذرة غبار، في كل لحظة يكمن انعكاسٌ لصورة مـا تأخذك وتطاردك وأخيرًا تسـتولي عليك. حتى إنك في أعياد الموتى لا تستطيع النظر إلى المرآة.

عندمـا تموت قارئـة الفنجان كريسـتينا وذات الثؤلـول الأرملة يادا، سـوف تعيـدان لي صلفي وتكبري وعنـادي وجهلي - أو أي شـيء لدي- تعيدانـه لي على هيئة صور ملعونـة لا يمكن قهرها، تسـتعبدك سـواء آمنت بها أم لم تؤمن. كنت أخافهما وأحيانًا كنت أسـتفزهما - وهو ما كنت أجرؤ عليه وهما على قيد الحياة- لأنني لم أسـتطع أن أخفي ضعفي أمام الأشباح الحالمة ولكن الحقيقية التي حفرتاها في نفسي بقصصهما وحكاياتهما.

منـذ زمن بعيد جدًّا جدًّا، حين لم أكن أنا ولا أمي في هذه الدنيا، كانت قارئة الفنجان كريسـتينا تعيش في بيت كبير أصفر بجانب سـكة الحديد. على الجانب الآخر من حديقتهـا الكبيرة كان هناك تمثال للمسيح على صليب خشبي ينظر إليها ليل نهار بخبث. "حتى الموت سـوف يخافه. كانت نظراته الحادة تنفذ خلالك كالخشب".

هكـذا كانت كريسـتينا تقول عـن تمثال المسـيح المصلوب. ومن حسـن الحظ أنه كان يحيط به سـياج من ألـواح مصبوغة باللون الأخضر الفاتح.

عندمـا كنا أنا وجدتي نزور كريسـتينا كانـت دائمًا تجلس في مطبخها السـاخن القاتم وسـط عديد من فناجين القهوة المقلوبة على الطاولة، وكأن رسالتها في الحياة أن تحتفظ بالطالع المقروء لزبائنهـا الذين دفعوا ثمنه جيدًا في بقايـا القهوة. كانت تقوم من مكانها فقط عندمـا تريد إيقاد المدفأة أو وضع قطعة من الحطب على النار. جدتي كانت تعتقد أن كريسـتينا بالكاد تتحرك بسـبب سـمنها المفرط. لم يكن ذلك مهمًّا، فهي كانت في الغالب جالسـة تصلـح وضع نظارتها العوجاء على أنفها بإحدى يديها، وبالأخرى تمسـك بكتاب قديـم أمـام عينيها، كتاب عـن الأحلام فـي النهار والأحلام في الليل، عن العلامات والإشارات التي يستحسن حفظها عن ظهر قلب إذا لزم الأمر. أو كتاب عن الأشـكال في بقايا القهوة، عـن خطوط الطالع على راحة الكف التي لا يفلت منها أحد. عندما أقعدتني على الكرسـي بالقرب من الموقد الساخن وأعطتني كتاب تفسـير الأحـلام بحروف متآكلة وغلاف أسـود ممزق، شـعرتُ أن كريستينا خُفْيَة تستخدم ألواح السياج الذي يقع على الجانب الآخر للحديقة ويحمي تمثال المسـيح من الدخلاء، كوقود للموقد. ولكن لماذا يريد أحد تسـلق السـياج إلى المسـطحة الخضراء الصغيرة حيث تسيطر نظراته الحادة؟

كريسـتينا كانـت نادرًا ما تتـرك بيتها الكبيـر المعتم حتى في الصيـف، وكان لذلك عفن الرائحة. كانت لا تذهب إلَّا لزيارة جدتي إلى يوم وفاة يادا كما أذكر، ولكن بعد ذلك كانت متأكدة أن العجوز

ذات الثؤلـول أخذت معها جزءًا كبيرًا مـن حياتها إلى القبر. ولكن عندمـا كانت تأتي لزيارتنا، تقرأ الطالع عدة مرات لكل جاراتنا من ورق اللعـب ومن بقايا القهـوة المطبوخة. وحتى أنا كانت تقرأ لي الفنجان من بقايـا القهوة أو حتى بدون قهوة، إلا أنها لم تذكر لي شـيئًا عن أسماء رجال تبدأ بحرف الميم أو الياء، ولا عن الحمل أو الإجهاض، ولا عن الأسـماك التي تُفَسَّـر بالمـرض. في فنجاني لم يكن هناك أثر لأشـياء مثـل المطر أو الصليب التـي تجلب الحزن والموت. كانت كريسـتينا ترى في فنجاني خيولًا بيضاء مسـرجة، وهـو ما يعني الهدايا. ومع مرور الوقت بدأت ترى أشـجار الحور العاليـة كثيفة الأوراق. وهي في الحقيقـة تحيط بنا من كل مكان، وتعني بيت غني، الصعود والحياة الفارهة. وراء كل أشجار الحور هـذه والخيول البيضاء يكمن العديـد من أنواع الموت، والعديد من الصور والأشـواق واللعنات والجنون والكذب والملابس السـوداء، وباختصار حياة حقيقية، كما كان يبدو لي آنذاك. ولكن كريستينا ويـادا لم تكونـا تحدثانـي بذلك، رغـم أنهما كانتا تجيدان سـرد الحكايات التي عاشـها أناس مجهولـون ولكن حقيقيون. حكايات مرعبة حتى إنهما تبـدءان بصوت هامس. وكذلك كانتا تعرفان أن الإنسـان يحس بموت قريبه، وأحيانًا كانتا مسـتعدتين، بعد تناول الغـداء عندنا، أن تنظرا في الأشـياء التي لم تحـدث بعد. ولكن لم تنسيا قَطّ التأكيد أن المخلوقات لا تموت أبدًا، لا الإنسان ولا الأشياء – وتعـدان بين الأشـياء الحيوانات والأطفال الذين لا يسـتطيعون الكلام والأشـخاص الذين فقدوا عقولهم– وأن كل شـيء ننظر إليه مـرة يعود مرارًا وتكرارًا. وفي الحقيقـة كان يبدو لي أن زيارتهما لنا كانت دومًا تتسـبب في تلـك العلامات التي كانتا تتحدثان عنها بهمس وتهديد، وتنبهان إليها، مثل صرير الدواليب من غير سـبب،

انطفاء نار الموقد المتكرر، القرقعة المكتومة أثناء النهار في غرف نوم لم يكن بها أحد، بقبقة الماء في حوض الحمام، وسقوط الصور من الحيطان.

عندما جلست يادا ملقية بنفسها على الكرسي ذي المسند بالقرب من الموقد، تأوهت كمن اعتاد أن يكون وحيدًا مع سوء حظه. "يادا، أوه، يادا" قالت لها جدتي ثم ربتت دونما سبب على يدها النحيلة المليئة ببقع الشيخوخة.

عندما طحنتُ حبوب القهوة سحبتُ الدرج الخشبي للطاحونة اليدوية ووضعتُ القهوة المسحوقة في الماء المغلي، وأخذت جدتي تحركه بطريقة غامضة مرة من اليمين إلى الشمال ومرة من الشمال إلى اليمين. ثم تركته يغلي ثلاث مرات ونصف وتنفست الصعداء لأن القهوة لم تَفُرْ هذه المرة، وإلا كنت أنا الملومة.

"نعم، هكذا، ولا شيء خلاف ذلك".. بدأت يادا وكأنها تحدث نفسها وكأنها تتوقع أن يطلب منها الآخرون أن تقص عليهم أيضًا ما حصل.

"وكأنه حصل بالأمس" بدأت يادا بالحديث وإن لم يَدْعُها أحد إلى ذلك.

"وكأنه حصل بالأمس، أتذكر.. في الساعة الرابعة صباحًا توقفت ساعة الحائط الكبيرة في غرفة النوم. عرفت على التو، حقيقة، على التو: زوجي لفظ أنفاسه الأخيرة إلى الأبد.. آمين".

وكانت عند هذه الكلمات تعتاد أن ترسم علامة الصليب، وقديمًا كان من عادتها أن تبكي كطفل يتيم، ولكن الآن أصبحت ذكرى

وفاة زوجها بعيدة جدًّا.

"زوجي لفظ أنفاسه، نعم.. لبست ملابسي وذهبت مشيًا إلى المستشفى، وأي ثلوج كانت في ذلك الشتاء عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين!".

كل النساء الثلاث وبينهن جدتي كنَّ ينطقن الأعوام الغابرة بقوة وبصوت عال يقرب من الصراخ، وكأنهن وكيلات عن الماضي الذي هن اللواتي جربنه بأنفسهن.

"في الحادي عشر من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ذهبت لأن زوجي لا يحب أن يبقى مستلقيًا عاري الثياب في المستشفى. لقد أقسمت له عندما تزوجنا ألَّا أتركه ينام عاريًا لا في المستشفى ولا في غرفة الموتى. ممرضات المستشفى نظرن إليَّ بغرابة عندما دخلت إلى المستشفى وأنا بيضاء من الثلج. قلت لهن: لا يجوز أن يتركوا زوجي عاريًا. لم أقل شيئًا غير هذا. لم أملأ ساعة الحائط بعد ذلك أبدًا. لقد استُهلكتْ وقتها. لم أستخدمها بعد ذلك. لا أريدها أن تعلن عن ساعتي الأخيرة!".

ثم أخذت تضحك من ذكر موتها القريب، وهكذا شجعت كريستينا وجدتي على الضحك حتى إن الثلاث صنعن جوقة ضحك لفترة وجيزة. استغلت جدتي فترة الاستراحة ووضعت على الطاولة صينية ثمينة من الفضة وعليها أربعة فناجين قهوة، أصغرها كان لي. عندما كنت أحصل على فنجاني من القهوة كنت مستعدة لأن أفعل أي شيء. وحتى أن أبقى ساعات وساعات وكأنني غير موجودة على وجه الأرض. فركنا أيدينا نحن الأربع وأخذنا ننفخ في الفناجين الساخنة.

"إنـك تقولين الحقيقة يا يادا" قالت لها جدتـي، "إن الموت لا يفاجئ أحدًا. حتى أنا عرفت متى حانت ساعة زوجي شتيفان".

ثـم أخـذت بصوت عـالٍ ثـلاث رشـفات متتابعات مـن القهوة السـاخنة وتلمظت بلسـانها من لسـعة القهوة ووضعـت الفنجان بصوت صاخب – فإن لديها ما تقوله- ثم واصلت حديثها.

"فـي تلك الليلة حلمـت حلمًا وكأنه في اليقظـة، كيف جاء إليّ زوجي شـتيفان ليقول إنه سـوف يذهب في سـفر بعيد جدًّا، وإن علـيَّ أن أرتب لـه كل الملابس وربطات العنق فـي حقيبة. قلت له باسـتغراب: إلى أين تذهـب الآن وأنت تعب مـن المرض الطويل؟ ولكن لوَّح بيده فيما يدل على عدم المبالاة بما أقول، ووضع إصبعه على شـفتيه أنه في عجلة من أمره، وأخذ يفتـح دواليب الملابس. وكان يُحْدِث قرقعة شديدة حتى إني انتبهت من نومي في منتصف الليل، وماذا رأيـت؟! كل الصور المعلقة على الجدران كانت تهتز، وصورة زواجنا سقطت على الأرض. بحق المسيح ويوسف ومريم، هذا ليس فألًا حسـنًا، قلت في نفسي، هذا فأل سيئ. فأنرتُ الغرفة ونظـرت إلى الدولاب ورأيت أنه مفتـوح على مصراعيه. وماذا أرى أيضًا؟ ربطات شـتيفان رُبطت بنفسـها دون أن يمسـها أحد. بعد موته بسـبعة أيام أعطيتها لأخي، ثـم قال لي إنه أحرقها كلها لأنها كانت تخنقه عندما يلبس إحداها وهو ذاهب للصلاة في الكنيسـة، حتى إنه صعب عليه التنفس أثناء أداء الصلاة. لا شـك أن شتيفان أراد أن يأخذها معه".

"هـذه هـي الحقيقة، نعـم، هذه هـي الحقيقة".. قالـت قارئة الفنجـان كريسـتينا والدموع تمـلأ عينيها، وقلبـت الفنجان على

الطبق كدعوة للأخريات أن يفعلن مثلها لأنها هي طبعًا لا يمكن أن تقرأ الفنجان لنفسها. كنت أود أن أقلب فناجين الضيوف، ولكن كريستينا لم تسمح لي قَطّ.

"لكلٍّ قضاؤه وقدره" كانت تقول لي دائمًا، "أنتِ لا زلت طفلة ولا تعرفين أنك هنا لا تستطيعين ولا يسمح لك بالمساعدة. كل واحد يعكس قدره بنفسه.. أو يقلبه".

بعد ذلك مسحتُ جوانب فمها من بقايا القهوة البنية بظهر كفها المصاب بالرجفة منذ فترة غير معروفة، ثم واصلت إحياء ذكرياتها:

"عندما أخذوا ابنتي قبل سنين طويلة إلى مستشفى الأمراض العقلية في فيينا، حلمت طول الليل بفيضانات. فيضانات، فيضانات وفيضانات. أن تحلم بالمياه وهي تهدر، شيء لا يتصوره عقل. حلمت كيف أن مياهًا عنيفة عكرة دخلت في السرداب، كيف ملأت البيت كله وأخذت تهدر تحت السرير بالقرب من أذني. في الحلم قمت وقاومت الإحساس بالقرف وخضت المياه الصفراء الملوثة، ونظرت من خلال النافذة نحو الصليب الذي يقع في ركن حديقتي. ورأيت أن كل أخشاب السياج الذي يحيط بالصليب قد تكسرت. وليس ذلك كل شيء! فقد رأيت بأم عيني التي أحملها في رأسي أن المياه المتراطمة قد نزعت تمثال المسيح عن الصليب وكان يبدو وكأنه طافٍ على الماء بيديه الممدودتين يهدئ طوفان يوم القيامة.

"أرأيت، أرأيت؟".. ردت يادا بصوت عال وأخذت الرشفة الأخيرة من القهوة: "الإنسان يمكنه أن يرى كل شيء إذا كانت

عنده الإرادة".

"عندما استيقظت صباحًا علمت أن هذه علامة سيئة. نظرت من النافذة ورأيت تمثال المسيح ذي النظرات الحادة لا يزال هناك على الصليب ولكن دون سياج، لأن السياج الخشبي كان محطمًا تمامًا. الجيران قالوا لي لاحقًا إن من فعل ذلك هم الأطفال أو أشياء أخرى ليس لها عقل، ولكنهم لا يعلمون. أنا أعلم، إنها عاصفة مرعبة في العالم الآخر، فقد كنت أرى ذلك باستمرار في القهوة وعلى الكف وفي أوراق اللعب, لقد كانت كارثة هائلة هي التي أخذت مني ابنتي مارتيتسا.

في ذلك الصباح كان ينتظرني على عتبة الباب تلغراف. الماء رماه.. يا للشياطين والعفاريت! هكذا صرخت، يا لكل الشياطين! لقد وصل الجنون إلى عتبة بابي!".

صفقت كريستينا بيديها ثم شبكتهما أمامها وكأنها لا زالت تدعو الشياطين ثم هزت رأسها:

"الماء: الحياة والموت" قالت بصوت خامد، "هكذا ورد في كتاب تفسير الأحلام الذي عندي".

كنا نستمع إليها ونحن مشدودات. وفجأة انفرجت أسارير وجهها وكأنها تذكرت نهاية سعيدة لهذه الحكاية.

"لقد حلمت بالماء أيضًا عندما جئت أنت إلى الدنيا!".. نظرت إليَّ وهي تشير بإصبعها.. "رأيت طيور بجع بيضاء.وقاربًا محطمًا يحملها نهر واسع بسرعة، عندها عرفت أن صبية ستولد!".. كانت إصبعها لا تزال تشير إليَّ، ولكن الآن أخذت ترفعها وكأنها تهدد

أحدًا.

كريستينا رأتني قادمة إلى الدنيا بين بجع هاجع وحطام. أحيانًا كنت أحلم بولادتي. كنت أحرك يدي وأرفس وسط سائل أحمر بني إلى أن اكتشفت أنني في الحقيقة أغرق. تمسكت بالحطام ثم شبكت يدي حول الأعناق الطويلة للبجع الذي كان خفيفًا كالريشة، كان البجع هاجعًا مغمضًا عينيه تاركًا نفسه لتيار الماء القوي الذي كان يزداد قوة. التقطتني إحدى البجعات وحملتني إلى جسر خشبي فوق سطح النهر، جسر قائم دون أعمدة. وهناك امرأة كانت واقفة، مدت إليَّ يدها الضخمة ثم سحبتني إليها إلى الشاطئ. جفَّفتْ شعري ومشطته ارتجالًا بأصابعها. ثم أمسكتها بيدي، وفجأة ظهر العديد من الجسور المتشابكة تقترب وتبتعد، ولم يكن بالإمكان معرفة على ماذا تستند إلا أحدها على الآخر ولفترة وجيزة. بكيت لأنه لا يوجد شيء غير الجسور المعلقة في الهواء. فقط مياه ومياه – باردة وحمراء وأحيانًا زرقاء بنفسجية- مياه تضحك في جمالها الصاخب الذي لا يستمع لشيء، ورغم ذلك تهدر تمامًا تحت جسر خشبي هش. لا أدري متى تحولت هذه القصة عن حدث ميلادي في الحلم إلى القصة السابقة عن الموت. وكما تُنبت البذرة الأولى عددًا لا حصر له من البذور، نبتت لي في كل مكان صور وأشكال وروائح وتلميحات عن الموت لا حصر لها، وكانت الأكثر قوة وواقعية. بالتأكيد بدأت أكتشفها في حكايات كريستينا ويادا وجدتي اللواتي لم يتوقفن عن تغيير أحداثهن الخيالية إلى وقائع وحقائق من عام ألف وتسعمائة وكذا وكذا، وقائع يزداد الرعب والغموض فيها كل مرة! ومن خلال أمسيات وليالٍ عديدة اكتشفت أن هذه الصور المرعبة والجميلة في نفس

الوقت قد أصبحت ملكي لأنها تعود وترجع باستمرار.

وفي المياه التي تعني الميلاد أو الموت استولت عليَّ صورة خاصة كانت كريستينا ويادا تستدعيانها، رغم أن جدتي قد منعتهما من الحديث عن ذلك أمام الأطفال. كانت صورة شبح حزين لراهب قُطِع رأسه لأن إحدى بنات النبلاء (كونت) سُلِّمت له ليرعاها ويعالجها في الدير ولكنها ماتت بسبب الجدري. كانت الحكاية قديمة سمعتها كريستينا من جدة جدة جدتها، والتي لم تكن بعد قارئة للفنجان آنذاك، ولكن كانت تسجل في السر تاريخ المكان التي كانت تعيش فيه. وعلى أساس ما كتبت، ظهر كتاب تفسير الأحلام الذي تملكه كريستينا بغلافه المتهرئ، وقد اشترته كريستينا في مدينة زاغرب[2] لأنه قد نفدت كل نسخه في فيينا. حزن الكونت على ابنته الوحيدة وعاقب الراهب الذي كذب وأكد أنه يستطيع معالجة الجدري بأن يقطع البثور ويتركها في الشمس، وهو ما قالت له قروية مجهولة! أحضر الكونت الراهب وقطع رأسه بنفسه بالقرب من جدول ماء. الكونت العجوز لم يكن يعتقد أن في منطقته فلاحة تجرؤ على معرفة القراءة والكتابة. رمى الكونت السيف في الجدول ولوث بدم الراهب البريء المصدر الوحيد للشرب بالقرب من القصر لثلاث وثلاثين سنة. أما الكونت نفسه فإنه قد فقد عقله في نفس اليوم. وكان شبح الراهب يتردد في غرفة نوم الكونت باستمرار إلى أن مات. وعندما ترجع له قواه العقلية قليلًا ويستطيع الكلام كان، كما يقول الخدم وكما كتبت هذه المرأة التي هي جدة جدة جدة كريستنا، يتمشى في شرفة القصر، وكان يقول إنه يجب فرش سجاد شرقي فخم طويل

2- عاصمة كرواتيا. قريبة من الحدود السلوفينية الشرقية.

وضيـق على الأرضية التي من خشـب الماهاجوني في غرفته حتى يمشي الراهب الذي لا رأس له على أرض ناعمة.

وبعـد موت الكونـت وظهور ما كتبـت الفلاحـة، كان الناس لا يزالـون يحكون ويقرءون تلك القصص، وكان بينهم من اسـتولت عليـه صورة ذلك الشـبح، وآخـرون كانوا يحكـون الحكاية فقط. كريسـتينيا كانـت تحكي هذه الحكاية في أغلب جلسـاتها حتى لا تبقى عندها، حكاية شـبح راهب مقطوع الرأس يبحث عن مستمع يرجع إليه. وبعد موت الكونت لف الخدم السـجاد الشـرقي الثمين على شكل لفافة ووضعوه في أعلى القصر تحت السطح.

حتـى أنـا بـدأتُ أرى الراهـب فـي الليـل، وكنت أتسـاءل: هل سيسـتحوذ بخياله الصامت عليَّ ويبقى معي إلى حين موتي كظل يتمشـى بالقرب من السرير؟ كان يتحرك في الغرفة بدون صوت، وأحيانًا كنت أسـمع حفيـف قميصه وهو يتحـرك. وعندما ذكرت لكريسـتينا أن الراهـب بدأ يزورنـي، نصحتني أن أنثـر ملحًا حيًّا هناك حيث يمشـي. ولكنه عاد ليظهر كثيرًا في أحلامي عن المياه. كيف علم بميلادي؟

ذات ليلـة حلمـت بمولـدي وسـط الميـاه، وبالصدفـة أفلتُّ يد المرأة التي تمسـكني وتسـحبني لحظة قبل غرقـي. بقيت وحدي بين الجسـور المتشـابكة التي تشـكل معًا متاهة لا يمكن فهمها. ثم قذفنـي الموج إلى مـوج آخر عنيف ذي لون أحمر بنفسـجي، كان يزداد اسـودادا. ثم عدت مرة أخرى بين الحطام والبجع الذي لا يفتـح عينيـه. حركت يـدي بطريقة مضحكة وحاولت التمسـك بالجسـور التي كانت دائمًا تتحرك بعيدًا ثم تقترب مرة أخرى، ثم

حاولت أن أتمسك بالأعناق الطويلة للبجع الذي كان وكأنه قد التحم في سكون مع تيار النهر مستسلمًا له ليأخذه إلى المجهول. وفي تلك الليلة رأيت الراهب الذي يظهر في حكاية كريستينا واقفًا على أسفل جسر. كان واقفًا هناك، طويل القامة، شعره الأبيض أشعث، والمياه تضرب وتغمر قدميه الحافيتين. كان يبتسم ومد لي يده المرتجفة المعوجة وفي عينيه يظهر إحساس رهيب بصورته الحقيقية كمقطوع الرأس، الصورة التي تطاردني. لا. فليكن راهب بدون رأس وليس هذا الواقف كالخطر الكامن! لذا استدرتُ وحاولت السباحة بعيدًا إلى الشاطئ الآخر رغم أنه كان من الصعب السباحة في تلك المياه العكرة التي يجري كل ما عليها مع التيار. وفي الجانب الآخر رأيت ابنة الكونت الشابة وهي تمشي على أحد الجسور، وكان وجهها مشوهًا بحفر من أثر الجدري، والصديد الأصفر يسيل من كل جرح مفتوح في جسمها. ارتفع الجسر فوق رأسي ثم هبط والتحم مع الجسر الذي يقف عليه الراهب. مشت ابنة الكونت نحوه ببطء. رأيت منجلًا كبيرًا معقوفًا كانت تخفيه خلف ظهرها، ثم رأيتها تتوقف أمام الراهب وتقطع رأسه بضربة واحدة وهي تضحك، فتدحرج الرأس في الماء وغرق فيه. رأيت كل الجنون أحمر يسيل من الجدول، جدول الحياة المتلاشية.

استيقظت ذلك الصباح وخرجت إلى نور شمس حقيقي. وعلى السلّم كان هناك تلغراف. التقطته ثم ألقيته على الأرض صارخة وكأن شيئًا ما لسعني. لقد ألقت به المياه هنا!

عندها خرجت أمي من البيت وسألتني أي رسالة هذه على الأرض ولماذا لا أقرأها.

«يـا للشـياطين والعفاريـت!» صرختُ، أمسـكتُ بقميصي من الجانب الأيسـر ثم قلت: «يا لكل الشياطين! لقد وصل الجنون إلى عتبة الباب!».

التقطـت أمي ذلك الظرف الأبيض مـن الأرض ثم هزتني قائلة: «كيف تقولين هذا؟».

لـم تكن الرسـالة تلغـراف، ولكن دعـوة من البلديـة إلى حفلة يانصيب في المدينة.

وقبل أن تدخل أمي البيت استدارت إليَّ ضاحكة وقالت:

«لن نسمح لك بعد هذا بشرب عصير العنب المختمر».

تليفزيون كولور[3]

كنت جالسة على كنبة بالية في المطبخ المشبع بالبخار، أقرأ في كتاب في يدي مستندة إلى حوض الغسيل الذي كان معدًّا للاستخدام عندما تركب مواسير الماء في البيت. ذلك اليوم جاء إلينا في البيت ابن عمي ستانكو، الذي رأيته يومها أول مرة في حياتي. لا أدري من أين ظهر أبناء العم وبنات العم أو الخال والعمات والخالات هؤلاء، فأمي وأبي لم يكن لديهما إخوان أو أخوات. إن أغصان شجرتنا العائلية من المفروض قليلة ونادرة، الأقارب المكتشفون من جديد دخلوا على شجرة العائلة كثمار غير متوقعة، ثم يتضح دائمًا أنهم مخلوقات مزعجة وضارة. ولكن لنترك هذا جانبًا.

«ابن عمي» ستانكو، كانت جدتي تشعر أنني حين أنطق كلمة ابن عمي أؤكد على علامة التنصيص هذه، كان أصغر مني بسنوات. كنت أصلًا أكره كل من هو أصغر مني سنًّا، لا أدري لماذا ولكن هكذا كنت، من المحتمل أن ذلك فقط نظام الحياة. عندما وضعت جدتي ابن عمي المزعج هذا إلى جانبي أشرتُ بإصبعي إلى حوض الغسيل الجاف ثم قلت له بحزم: لا. نظر إليَّ باستغراب. كان عليَّ

3- كولور kolor: كلمة سلوفينية عامية تعني: بالألوان. وهي مأخوذة من الإنجليزية color.

أن أتكلم معه بتلك الطريقة، وأن أشـرح له أنه ممنوع الاستناد إلى الحوض؛ لأنه سوف يبلى قبل أن يسيل الماء من الحنفية فيه. هناك شـخص واحد فقط في العالم يمكنه الاستناد إلى الحوض دون أن يبلى، وهو أنا. عندما لامسـت جدتي رأسـي بيدها وهي تهوي بها عليَّ (لأن شـيئًا ما كان يغلي على الموقـد، لذا لم يكن لديها الوقت الكافي لتسـديد الضربة بدقة)، أحسسـت بوشوشة في رأسي مع عدم تركيز أثناء النقل الحي السـيئ على التليفزيون لمشـي رجال الفضاء على سطح القمر. وهذا هو كل ما حدث.

لما رأيت أبا ستانكو بعد أيام، وكان قد عاد من العمل في ألمانيا، اتضح لـي الأمر أكثر: أن هـؤلاء لا يمكن أن يكونـوا أقرباءنا. كان شـعر والد سـتانكو بلون البرتقال يكاد يميل إلى الاحمرار، وحتى الحواجـب والرموش كانت بهذا اللون. ثم هناك الشـوارب واللحية التـي تركها تنمو وكأن ما عليه من اللـون البرتقالي لم يكن كافيًا. العم تسـفيتو كان ينتمي من المؤكد إلـى ذلك العرق الغريب الذي نطلـق عليه نحن في هـذه المنطقة «النمل الأصفـر». وفي عائلتنا مـن المؤكـد أنه لم يكن هناك نمـل أصفر أبدًا. جدتـي ووالدي قد بينتـا ذلك بوضـوح. في عائلتنا أيضًا لم يكـن هناك رقاب قصيرة أو انتحار أو معاقرة النساء، وحتى الأفواه الواسعة أيضًا. في أثناء الغداء في أحد أيام الأحد، حاولت أن أفتح فمي قدر ما أستطيع، ثم حاولـت تقليد الأرنب بفمي (وأيضًا صهيل الحصان)، ثم قال جدي وجدتي أحدهما بعد الآخر في حزم وفخر:

«لا. حقيقة، ليس لها فم واسع».

«لا. ليس لأحد من أولادنا فم واسع، حقيقة».

لـذا لم أفهم، مـن أين دخل ذو الشـعر الأصفر إلـى عائلتنا. لم يكن شـعر ابنه ستانكو أحمر ولا شـعر زوجته. في الحقيقة أن أم ستانكو كانت بدينة، ومثلها في عائلتنا قليلون وهم قد نُفوا بعيدًا.

وفي الأسـبوع التالي بدأنـا بحفر خندق طويل فـي فناء بيتنا. يبـدأ من أطراف أرضنا بالقـرب من الجدول ثـم يحيط بالحديقة ويقترب من البيت. النملة الصفراء تسـفيتو قـال إنه في ألمانيا لا يوجد شخص بلا مواسير المياه، حتى الغجر يغسلون أيديهم تحت الحنفيـة، وكلهم يصبون الماء مـن الخزان الصغير عندما يقضون حاجتهـم. «نعـم، طبعًا» همهم جدي لنفسـه وواصـل: «ثم عندما يتبرزون تقوم فرشاة المرحاض بتنظيف مؤخراتهم». كل تكاليف تركيب مواسـير الميـاه – غير حفـر الخندق في الفنـاء- تحمَّلَها هـو. على كل حال، كنت أتمنى أنه لن يكون عندنا فرشـاة تنظيف المؤخرة هذه.

وبعد أيام بدأ الماء لأول مرة ينسـاب مـن حنفياتنا في المطبخ والحمـام والمرحـاض، وحتـى فـي حـوض السـيراميك الصغير المشـقوق الموجود في الممر. قال عنه جدي إنه لا زال جيدًا عندما أتي به من مكان لا أعرفه. ابن عمي الغريب ستانكو لم يستطع بعد ذلك التفاخر بمواسير المياه التي عندهم في بيتهم الممل الذي يقع على الطرف الشرقي البعيد للمدينة والذي كنا نسميه «بنغلاديش». هاهـو الماء يتدفق أيضًا في بيتنا، في كل مكان، إلا في غرفة النوم والبـدروم والسـطح. كان بالإمـكان أن يتدفق المـاء الدافئ أيضًا، ولكن لم نشعل السخان أبدًا. وكان بإمكاننا أن نفعل.

ذات يـوم زار والـدي العمّ تسـفيتو ورجـع البيـت منفعلًا من

الإعجاب، نسي شريحة اللحم التي أمامه عدة مرات، كلما غرس فيها الشوكة والسكين أعاد ما قال إن النمل الأصفر الآن لديهم تليفزيون كولور، وإن تسفيتو اشترى التليفزيون الكولور فقط من أجل ابنه الذي يحبه جدًا. «آها، آها» قالت جدتي وهي ترمي قطعة الحطب في الموقد، ويبدو أنها كانت تتظاهر فقط أنها لم تسمع شيئًا طيلة الوقت. وددت أن أعرف هل جاء هذا التليفزيون الكولور أيضًا من ألمانيا، ولكنهم أسكتوني. جدتي قالت إن هذا هو «كولور جنون كبير» وليس من معجزة التقنية، وإنه لا يجب عليه أن يتبع خطوات عائلة النمل الأصفر. رمى أبي الشوكة على الأرض (بعد ذلك وبعناد تناول قطعة اللحم بالسكين فقط) ثم رد عليها غاضبًا أن الإنسان وبسبب الناس المتأخرين كوالديه الفلاحين المتحجرين مع الأسف، لم يستطع أن يحقق شيئًا في الحياة. جدتي ردت عليه صارخة أنها حزينة أن لديها ابنًا مثله لم يُرِدْ ولم يستطع أن يحقق شيئًا في حياته، حتى بعد انتهاء الحرب عندما كانت فرص تعليم الشباب الأذكياء متوفرة، كان يفضل التنقل على تلك الدراجات النارية اللعينة طيلة النهار، وطيلة الليل، كان يقرأ تلك الكتب الحمراء اللعينة بدلًا من أن يتعلم ليتخرج طبيب أسنان أو صاحب مطبعة إذا كان يرى أن الفلاحين نتنون. أما بالنسبة لي فلست أهتم هل أبي طبيب أسنان أم صاحب مطبعة أو حتى «عامل عادي» كما يقولون هنا. ولم يكن يثير اهتمامي أن للنمل الأصفر كتبهم الحمراء الخاصة أيضًا.

كل ما أردته هو تليفزيون كولور. أن يكون عندي تليفزيون كولور ثم يمكنني أن أموت.

في البداية سألت جدي: ماذا تعني كلمة «كولور»؟ أجاب بأنه

بالألـوان. فسـألته: كيف كولور بالألـوان، وأي ألوان؟ أشـار بيده بضيـق: «آه». لـذا سـألت: هل يمكـن الحصول علـى الكولور في المتجر الجديـد بمنطقة بنغلاديش يمكن توصيله بتليفزيوننا مثل المـاء بالحنفية؟ ولكن جدي رد ضاحكًا أنه لا يمكن الحصول على الكولـور فقط من غير تليفزيون. لذا لم يبق لي إلا أن أتظاهر أنني أريد وبكل سـرور زيارة ابن عمي سـتانكو، وأسـتغل هذه الزيارة لرؤية وفحـص التليفزيون الملـون الذي، كما يقـول والدي، فوق التصور وأن الألـوان كالخيال العلمي. ولكن سـتانكو لم يذكر لي هذا المكسـب الجديد في بيتهم، ولم أُرِدْ أن أسأله من تلقاء نفسي. لم أسمح له قَطّ وهو أصغر مني أن يتفاخر بشيء أمامي. هكذا هو النظام. رغم أنني كنت أريد أن أعرف كم عدد التليفزيونات الملونة فـي بنغلاديش إذا كان في يوغسـلافيا كلها كمـا يقول أبي «بضع مئات» فقط.

عندما عدت من المدرسة ذات يوم ربيع، كان ستانكو قابعًا على عتبة سـلّمنا. كانت حقيبته المدرسـية مرمية علـى بعد أمتار منه. فرصة حقيقية أن أتحداه أن يدعوني لمشاهدة التليفزيون الملون. ابن العم الأحمق هذا يُفترض أن يكون الآن في المدرسة في الفترة المسـائية، ولكنه يبدو أنه أقدم على شـيء، شيء رهيب، منعه من الذهاب إلى المدرسـة. من الممكن أن يكون هناك عطب بمواسـير المياه أو هناك مشـكلة في المياه التي تجري في مواسـيرنا وذلك بسبب والديه اللذين لا يجرؤان على الحضور أمامنا، لذا فهم أرسلوا ابنهـم لأنهم يعتقدون أننا لن نعاتبه أو نضربه. النمل الأصفر فقط يمكـن أن يفعل ذلك بأطفالـه الصفر. ولا بد أن أذكر أن سـتانكو أيضًا بدأ شعره يصبح أشقر.

عندما سألته ماذا يفعل هنا على سلّمنا في وسط النهار بدلًا من أن يكـون في المدرسـة، همهم أنه ينتظر جدتـي. كلامه أغضبني أكثـر. أنا التي سـألته، وهو فوق ذلـك كان أصغر مني سـنًّا على الدوام.

وضعت حقيبتي المدرسية من على كتفي على الأرض ووضعت يـدي على خصـري وقلت له: «جدتـي تذهب كل يـوم عند الظهر لتجلب الحليب، فهي ليست موجودة، لا أحد هنا غيري. ولماذا أنت عبوس هكذا؟ هل مات أحد من أهلك؟».

رفع سـتانكو رأسـه الطفولي الثقيل ونظر إلي نظرة سـارحة حزينة، كما يفعل الأطفال ذوو الأفواه الواسعة المنشدون في جوقة المدرسـة، ثم هز رأسـه بالإيجاب. خطوت إلى حقيبته المدرسـية ومسحت عنها الغبار ثم سلّمتها له.

«خـذ، أمسـك حقيبتك، فإنك سـوف تحتاجهـا بالتأكيد»، هكذا كانـت جدتي تقول لي دائمًا. كانت هـذه أفضل نصيحة في جميع الأوقـات. أخـذ الحقيبة بيد مرتخيـة حتى انزلقت نحـو رجليه ثم تدحرجت على السلم.

«هل مات أحد من أهلك أم ماذا؟» سألته مرة أخرى.

«أمي أقدمت على الانتحار».

«والآن هل هي ميتة أم ماذا؟ الآن هي منتحرة؟ لا تبالغ».

«إنها في المستشفى» رد ستانكو ثم أخذ يرتجف بطريقة غريبة. يا للخسارة أنه لم يستطع الإمساك بالحقيبة وإلا كنت أرسلته على التـو إلى المدرسـة. ثم واصل كلامه «في ذلك المستشـفى بطرف

المدينة».

«الموتى ليسوا في المستشفى» حاولت تهدئته، «إذا كانت في المستشفى فهي ليست ميتة».

«ولكنها ليست حية أيضًا» قال ستانكو باكيًا.

«كيف عرفت ذلك؟ لم يجدوا من يخبرونه غيرك؟» حاولت أن أراوغه بالحديث.

«أعرف ذلك! لقد رأيتها! لا تتكلم! لا تنظر! تستلقي فقط، والأنابيب تزحف من يديها ورأسها!».

فكرت: آها، خيال علمي.

«اسأل جدتي! سوف تقول لك هي إن أمك لم تمت».

وفي تلك اللحظة من خلف ركن البيت كعاصفة هوجاء أسرعت جدتي وهي ترتجف أيضًا. ثم تركت علبة الحليب من يدها على الأرض وسحبت ستانكو من على السلم إليها واحتضنته.

«أوه، ستانكو، ستانكو!» كانت تتأوه، «مسكين أنت، مسكين!».

ستانكو ليس مسكينًا، فهو تربَّى مع المياه الجارية من الحنفيات، ولديه تليفزيون ملون، فرشاة لغسل المؤخرة، وكثير من الأشياء الأخرى من ألمانيا. أما الآن فجدتي قد أهانته بكلمة مسكين، وهذا ما جعلني أضحك؛ لذا أخذت علبة الحليب وحملتها إلى البيت قبل أن يراني أحد ضاحكة.

في ذلك اليوم كل من جاء إلى الفلاح ليشتري الحليب علم أن

العائدة من ألمانيا من حي بنغلاديش انتحرت. ولماذا الآن وعندهم كل شـيء؟ عندما اشتروا كل شيء ورتبوه، ولديهم أيضًا هذا الولد الرائع، المسـكين؟! هكذا كانوا يتكلمون. إنها الحبوب، ولماذا الآن بالضبـط، طبعًا بالتأكيد، ذاك الأشـقر زوجها رجـل مثابر ولديهم بيت؛ الثالث من اليسار وأنت خارج من المدينة. أما هي فإنها فلاحة من قرية غوريتشكا. لماذا الآن بالضبط تناولت الأربعين حبة؟

«ولكـن في الحقيقة قد يكون أكثر مـن أربعين حبة» قالت أمي بهمـس لجدتي عند الغـداء بعد ثلاثة أيام من الحـادث، «وإلا فقد كان بالإمكان أن يوقظوها فـي اليوم الأول». عندما لا يتناول جدي ووالدي الغداء معنا تتحدث جدتي ووالدتي همسًـا. كنت أرد عليهم أنـا بالهمس ولم نكن نـدري من يتنصت علينـا عندما نكون نحن الثلاث فقط معًا.

«بالتأكيد كانت أكثر من ذلك» واصلت جدتي بعد فترة. «وأيضًا المشروب والكحول».

«نعم، بالضبط، الكحول كان أيضًا موجودًا».

«نعم، لقد كانت فودكا».

«تلك من ألمانيا».

«من ألمانيا».

وهكذا رسـخ في ذهن الناس أن زوجة العم تسفيتو ابتلعت 40 حبـة دواء حتى تنتحر، على الرغم من العدد في الحقيقة كان أكثر من ذلك. وفوق ذلك تناولت الفودكا الألمانية. وبالتحديد الآن، وهم قبل فترة وجيزة اشتروا تليفزيون ملونًا كما تردد جارتنا.

«ماذا نفعل بالصغيرة؟» سألت جدتي أمي في همس وأشارت بذقنها إليَّ.

«فلتذهب معنا».

«حقًّا، فلتذهب. الناس يتعودون على الحياة من صغرهم» جاء إعلان جدتي.

بعد الغداء. لبست ملابسي وانتظرتهما بفارغ الصبر على السلم الخارجي. وعندما مشت جدتي وأمي عن يميني وعن يساري أمسكت بيديهما ومشينا إلى المدينة.

هذه هي المرة الثانية التي آتي فيها إلى منطقة بنغلاديش، هذا الحي الجديد بالمدينة الذي كانت تغطيه بيوت بيضاء مربعة بأسطح مستوية. ثم قبل سنين قليلة ظهرت بيوت جديدة متساوية في خمسة أو ستة صفوف متشابهة. بالطبع لم نتوقف عند البيوت البيضاء بالأسطح المستوية، فهي للأطباء والمهندسين وكبار الفلاحين وكل لم يكن عاملًا عاديًّا. أما نملنا الأصفر فيعيشون في أحد البيوت المصفوفة. عندما ضغطنا على الزر بالباب الخارجي سمعنا رنينًا في البيت، وجاء العم تسفيتو ليفتح لنا الباب. أجهش بالبكاء عندما رآنا وكأن أحدًا ضغط عليه. أعطى جدتي مفتاح السكن ومسح بكمه الدموع والمخاط.

«أوه، لا تهتم، لا تهتم» قالت له جدتي.

«جزاكم الله على ذلك» رد العم سفيتو ومسح للمرة الثانية المخاط من شواربه التي كانت أكثر احمرارًا، ثم ترك البيت.

طرأ على بالي أننا الآن وحدنا في هذا البيت، فقد أخذوا

ســتانكيتس (اســم التدليل لســتانكو، فقد نســي الناس في الأيام الأخيرة اســمه الحقيقي ســتانكو) إلى أقرباء لهم فــي القرية. من المحتمل في أعلى التلال، وقد يظهر أثر ذلك في مشيته.

«والآن» قالــت جدتي أمــام الباب بعد دخولنا البيــت. هذا الباب مــن المؤكد يــؤدي إلى المكان الــذي يقال له في البيــوت الجديدة غرفة النهار (غرفة الجلوس أو الاستقبال)، كنت أتساءل دومًا: هل توجــد أيضًا غرفة الليل؟! عندما كنا نحن الثلاث واقفات أمام غرفة الجلوس، رســمت جدتي إشارة الصليب، وبسرعة فعلت مثلها أمي رغم أن ذلك لم يكن يعني لها شــيئًا، ثم عندما رســمت أنا إشــارة الصليــب أخذت جدتي نفسًــا عميقًــا وفتحت الباب. أشــعة الضوء الوامضة كانت تســقط على الممر وعلينا. وفي لحظة كنا في وسط ألوان تتدفق وتتمازج. عندها أحسست لماذا يقولون إنه في الحياة لا يمكــن العودة خطوة إلى الوراء. لا يمكن نســيان ذلك. كنت أول مــن دخل إلى غرفة الجلوس التي كانــت لا تزال تمامًا مثلما رأيتها ذات مســاء أول مرة، غير أن هذه المرة كانت الستائر مسدولة إلى النصف.

«انتبهــي» حذرتني جدتي، وبدا لي أن صوتها كان عميقًا وجادًا يكاد يكون مهيبًا، «لا تقتربي كثيرًا هكذا. يمكن أن تقفي هنا. ليس جيدًا أن تقتربي هكذا».

هززت رأسي ووقفت بجانب السرير الذي كان في الحقيقة كنبة تســحب لتصبح سريرًا. وقفت مبهورة وســط أضواء بألوان قوس قــزح كانت تغمرني وتدغدغني وهي تنطلق من التليفزيون الملون الموضوع على رف فوق السرير.

«انظـري ماذا ينتظرنا في النهاية!» قالت جدتي ورمت حقيبتها على الأرض.

أمي أجهشت بالبكاء.

كان البرنامج التليفزيوني عن حياة نهر في جمهورية البوسـنة والهرسـك. كان الماء بلـون أخضر والعصافيـر بمختلف الألوان. أما الشـخص الذي ظهر فـي التليفزيون ويأخذ المشـاهدين عبر البرنامـج فـكان يرتدي بنطالًا قصيـرًا أزرق بلون السـماء وقبعة حمـراء غامقة. وعندمـا ظهرت على الشاشـة خريطـة جمهورية البوسنة والهرسـك وعليها يظهر خط النهر يومض باللون الأحمر، بدأت جدتي وأمي بعملهما. تقدمتا كل واحدة في جهة إلى السرير وأمسـكت كل منهما بكتف أم سـتانكو المنتحـرة، وهي الآن ميتة حقًّا، ثم رفعتاها بعض الشيء حتى سقط رأسها الميت إلى الوراء فوق السـرير، ثم وضعتا مخدتين تحت الـرأس. الآن أصبح وضع وجههـا أعلى قليلًا، لذا كانت الأضواء الملونة لنهر البوسـنة تغمره من وقـت لآخر، وأحيانًا الخطوط المتشـابكة للخريطة، ثم تضيء الوجه نقاط فضية تمر بسرعة تعكسها السمكات النهرية.

أحضرت أمي حوض غسيل محمولًا وأخذت تغسل قطعة قماش تمسـح بها وجه أم سـتانكو البدينة ويديها. ثـم أخذت جدتي من حقيبتها أحمر الشفاه والبودرة وأقلام الخطوط التي حصلت عليها من إحدى قريباتها في بوينس آيرس ورتبتها على السرير.

«قبل مدة رأيت سـفيتو مع تلك العُصَيَّة. لا أدري إذا كان عندها عشرون سنة!» بدأت جدتي بالحديث.

أجهشـت أمي بالبكاء وكادت أن تمسح دموعها بقطعة القماش

التي تمسح بها الميتة. «إنها تلك الخنزيرة، نعم. حتى لما كانت هذه المسكينة تستلقي في غيبوبة في المستشفى، كانت الخنزيرة تقف خلف الأشجار في الحديقة أمام المستشفى تنتظره. إنها تعلم جيدًا أنها فرصتها الآن أن توقع سفيتو في شباكها».

«كلبة عادية من غوريتشكا» ردت عليها جدتي.

«سوف تحصل على جزائها بالتأكيد».

«نعم، بالتأكيد».

عندما غطت جدتي الوجه المنتفخ للمرأة المخدوعة المتوفاة ببودرة كثيفة، لم يعد يعكس خضرة نهر البوسنة. وفجأة تقدمت أمي إلى الشاشة وأخذت تنظر إليها باهتمام، ولكن إلى أن وجدت المفتاح وأغلقته، فلما صمت مقدم البرنامج ذو القبعة الحمراء، سُمِع صوت رتيب قادم من المطبخ. ثم عندما غطت جدتي زوجة تسفيتو وأخذت أدوات التجميل، ضربت على جبهتها ودخلت إلى المطبخ الألماني. كانت هناك على الطاولة ورقة وعليها زجاجة فودكا. رفعت جدتي الزجاجة أمام أمي ثم دستها في حقيبتها بجانب الألوان الخاصة بالموتى. عندها اتضح لي أن الضربات الرتيبة التي لم أستطع طردها من بالي ليست إلا قطرات تتساقط من الحنفية السميكة على حوض الغسيل. شدت جدتي الحنفية وأغلقتها.

كان في نفسي أمل كاذب عاش بعد ذلك لعدة شهور، هو أن الحداد – بجانب الملابس السوداء والدموع وإرسال الشخص الحزين نفسه إلى القبر- يتطلب أيضًا مشاهدة التليفزيون

بالأبيض والأسـود، وأن النمل الأصفر سوف يتركون لنا التليفزيون الملـون لمدة سـنة على الأقل في مدة الحـداد. ولكن عندما زرتهم بعد ذلك عدة مرات في حي بنغلاديش كانوا منهمكين في مشاهدة التليفزيـون الملون الـذي غيروا مكانه، فهـو الآن في المكان الذي كانت تحتله الكنبة وعليها الميتة. العم تسـفيتو كان يلف بأصابعه المصفرة لفافة سـيجار بني اللون، وبصـوت عال يتابع المذيعات ذوات الماكيـاج الصارخ والمذيعين بملابسـهم زاهيـة الألوان. أما عصية غوريتشكا فكانت تجلس في الوسط، وكالعادة كانت تمضغ أظافرها المتشـققة والمطلية بالأحمر. ستانكو كان كثيرًا ما يقوم بإرادته أو تلبية لرغبة أبيه إلى التليفزيون. وكان كلَّما ضغط بزهو وافتخـار علـى زر البرامج لتغييـر القنوات توهج شـعره الأصفر بألوان مختلفة.

القبور لا تُفتَح

كانت جدتي تنزع الحشائش من على سطح القبر عندما كنت أقلب نظري في القبور المجاورة. أكثر ما تعجبني تلك القبور ذات الشواهد الضخمة والتي عليها ألواح سوداء بأربعة مقابض من الحديد. (لم يكن لدينا على القبر شواهد ولكن صليب مصنوع من خشب متين).

«متى تفتح القبور يا جدتي؟ متى يفتح الناس قبورهم؟».

«ما هذا الكلام؟ أنت تعرفين أنهم لا يفتحونها. القبور لا تفتح!».

«بالتأكيد ليست كلها. ولكن تلك التي عليها ألواح ثقيلة من المرمر بمقابض حديدية كبيرة، تلك بالتأكيد تفتح».

كنت أعرف مسبقًا أن جدتي لن تخبرني بشيء. إذا قالت لا في البداية، فهو قرار يسري إلى النهاية، لا توجد استثناءات، بغض النظر عن الأسئلة التي تعقب ذلك. ولكني لم أكن أرى في ذلك أي دقة، ولكن كسلًا في الإجابة. لو أنها أجابت بالإيجاب على سؤالي الأول لكان عليها أن تحدثني كل مساء بالتفصيل. ولكن إذا قالت لا عند البداية، فهي تبقى مصرة على الجواب نفسه حتى لا تقع في فخ اعتراضي: «كنت قد قلت شيئًا مختلفًا قبل هذا».

وكانت هذه هي الحالة مع القبور التي لا تُفتح. كل الأسئلة التي سوف تلي ذلك سوف تغضب جدتي وسوف تجيبني باختصار وجفاء. ولكني رغم ذلك لم أستطع أن أتوقف عن السؤال. كنت متأكدة أنه بالإمكان معرفة كثير من الأشياء عن هذا سواء أجابت جدتي أم لم تجب.

انتصبت جدتي قائمة وفي إحدى يديها حزمة من الحشائش وبالأخرى أمسكت بظهرها، وقالت وهي عابسة:

«ليس هناك قبور تُفتح. ولماذا تفتح؟».

(كانت بالتأكيد تفكر في الأوجاع التي بظهرها، وليس في سؤالي).

«حتى يرى الناس ماذا في الداخل».

«ولكنهم يعلمون من دفنوا فيها، فماذا يرون إذن؟».

«ولكن ذلك المدفون كل سنة يتغير..».

«لم يعد هناك أحد. فليس هناك ما يُرى».

(بعد كم من الزمن يختفون؟).

«هل أنت حقيقة لا تعرفين متى تفتح القبور؟».

استغرقت جدتي في نزع الحشائش ثم أجابت في ضيق ولكن بهدوء:

«القبور لا تفتح».

يا للأسف أن جدتي كانت هكذا عنيدة.

«لماذا إذن عليها مقابـض؟ بالطبع يفتحون القبور. ماذا يوجد أصلًا تحت الألواح التي على القبر؟».

«ليس هناك غير التربة، ماذا يمكن أن يكون هناك؟».

(التربة التي ستأخذنا كلنا).

«مـاذا، تربة؟ لماذا هذه الألواح على القبور إذا كانت عند رفعها تظهر التربة فقط؟».

لم أسمع الجواب، هذا إن كنت أصلًا حصلت على جواب.

إذا وطئـت الألـواح المرمرية تدوي كطبل، إذن مـا تحتها ليس تربـة. بعض القبـور عليها ألـواح بمصراعين للرجـل وامرأته. إذا دسـت بقدمك علـى مثل هذا اللـوح يتمايل تارة المصراع الأيسـر وتـارة الأيمن بصوت مدوٍّ. هـذا يعني أنهم فتحـوا القبر منذ زمن قريـب ولكن لم يغلقوه بعناية، لذا فالألـواح تتمايل. أما أن الألواح التي على القبور تحدث دويًّا فهذا طبيعي.

حقيقة لم أستطع أن أتصور متى يفتح الناس القبور. متى يأتي أربعة من أقارب المتوفى ويمسكون كل بمقبض ويرفعون الألواح السـوداء التي على القبور ويضعونها على الحشـائش بالقرب من القبر المفتوح.

حاولت أحيانًا الإمسـاك بأحد المقابض الحديدية، ولكن عادة لا يمكـن تحريكها لأنها قد غطاها الصـدأ. بعضهم نادرًا ما يفتحون القبور.

"جدتي، أنا ذاهبة".

" إلى أين؟".

"لأتجول قليلًا وأنظر ما حولنا".

"اجلبي لي ماء في الإبريق قبل كل شيء".

"لا أستطيع، سوف أسكب الماء على نفسي، ثم سأ
بالبرد".

"آخ" قالت جدتي ولوحت بيدها، وذلك يعني أنها فهمت أنن
أريد أن أساعدها ولو بأدنى مجهود، لذا فإنها لا تمانع أن أذهب

ذهبت لأشاهد القبور التي أعرفها من قبل. وصلت إلى مرقد قد
في وسط المقبرة. وقفت على أطراف أصابعي لأستطيع النظ
من خلال فتحات مستطيلة عليها شبك معدني إلى داخل المرق
المظلم، والذي ليس بداخله شيء يُرى. ثم أمسكت بالمقبض
الحديدي للمرقد وكلي أمل أنني سوف أجد الباب يومًا مفتوحًا.

أما القبر الذي بجوار المرقد المظلم فقد كان يزينه تمثال كبير
عليه شقوق لملاك يحمل سيفًا. كان من الضروري دهانه بالطلاء.

وصلت إلى شاهدة على قبر وعليه تمثال ملاك صغير بدين. كان
القبر لطفل وأبواه يعلمان أن للطفل الآن جناحين. ثم تأتي بعد
ذلك القبور التي تحمل صورًا حتى لا يُنسى أصحابها.

ولكن القبور المهملة التي تقع على أطراف المقبرة لم تكن
تعجبني، فلا شيء مثير للاهتمام فيها، ليس هناك إلا الحشائش
والصلبان الخشبية.

ثـم وصلت إلـى مكان حفـظ الجثث قبـل دفنها. مشـيت على أرضية الفناء الحجرية باحترام رغم أنني لم أستطع خفض صوت خطواتي. وعلى الجدار لوح خشـبي وعليه نعـي واحد فقط. ومن سـنة الميلاد والوفـاة يمكن الاسـتنتاج أن المتوفى امـرأة عجوز. وعندما لمحت ورقة النعي المحاطة باللون الأسـود تملكني شعور أنه يجب عليَّ أن أُظهر الاحترام والإحساس بالحزن، رغم أن مصير هـذه العجوز في الحقيقة لـم يكن يهمني (فأنا لـم أكن أعرفها). ورغم ذلك لم يكن من المناسب أن أجري من الفناء الحجري وأترك خلفي صدى وقع خطاي التي تُذكِّر بالصخب والمجون.

كان المكان فارغًا ومهجورًا عند الظهيرة، وهو يتطلب من الزائر الوحيـد زيادة فـي الاحترام والتفكيـر (مثلًا أن هذا فـي انتظارنا جميعًا).

لاحظت أن باب مكان حفظ الجثث موارب قليلًا. فكرت أن أدخل وأقـف للميت بضع دقائق شـابكة يـدي وبوجه حزيـن مائل إلى الجانب. كنا نفعل ذلك كثيرًا مع جدتي. كان دافعنا الرئيسي لفعل ذلـك الفضول، والآن لا يختلـف الأمر، ولكن جاء اعترافي بذلك بعد فتـرة طويلة. فتحت الباب بهدوء وتركته مواربًا قليلًا، فلم يكن في صالـة الدخول نور كافٍ للتعرف على الميت إلا إذا كانت الشـموع أُنيرت حول رأسه.

عندمـا دخلت أحـاط بي هواء بارد في هذا المـكان المظلم. كل أمكنة وضع الجثث محاطة بحاجز زجاجي. ألصقت أنفي بالزجاج الكبير ولكن لم أتبين شـيئًا غير كومـة كبيرة من الزهور والأكاليل التي لم توضع بشـكل جميل. ارتفعت علـى أصابع قدمي، وعندها

رأيت يدي المتوفى متشابكتين، وبعض الشموع الخافتة على المنصة ترسل نورًا محمرًا على ما كُتب على الأشرطة المتدلية من الأكاليل: "... أسرة... في الوداع الأخير... أمنا العزيزة و... معهد الـ...".

كانت عضلات ساقي الخلفية تؤلمني بسبب الوقوف على أصابع القدمين. أرحت أصابعي وهززت رجلي المنملتين. ولكن لم أستطع إلى اللحظة رؤية وجه المتوفى، ولكن بدا لي أنني رأيت أرنبة الأنف بفتحتين سوداوين أو قد يكون ذلك زهرة القرنفل البيضاء اتخذ ذلك الشكل بسبب النور الخافت في غرفة الموتى.

تذكرت مقعدًا تحت النافذة حيث يمكن للأقارب البعيدين والمعارف الجلوس ومشاهدة إجراءات التجهيز. في البداية أقعيت على المقعد فظهر لي الذقن والأنف والجبهة، ولكن في وضع وكأنني أنظر إلى المتوفى من تحت إلى أعلى. عندها نهضت قائمة على المقعد وأخيرًا شاهدت المنظر كاملًا في غرفة الموتى كما كنت أحب أن أشاهده. وهذا المتوفى كان مبالغًا في وضع المساحيق على وجهه، أما فمه فكان مغطى بلون أحمر قوي.

وفي الجانب الآخر للغرفة هناك أيضًا ممر ولكن ليس مفصولًا بحاجز زجاجي. ولمحت للحظة ظلًا يحمل قبعة على رأسه. لم أتبين بوضوح ذلك المار؛ لأنني كنت مستغرقة في مشاهدة المنظر في غرفة الموتى، لذلك تأخرت في رفع نظري إليه. تنفست الصعداء لأن حفار القبور قد مر، رغم أني لم أكن أفعل شيئًا مخالفًا، ولكن تملكني إحساس غريب أنه من الأفضل ألّا يراني أحد.

ولكن حفار القبور عاد. إذن فقد لمحني ولكن اكتشف ذلك

بعـد أن مر بالغرفة. نظر إلـيَّ بأعين نصف مفتوحة وكأن الزجاج الذي كنت أقف خلفه شوش نظره، ثم أخذ يلوح لي بيده بشدة. لم أفهم ما يريد، ولكن كنت على اسـتعداد للقفز من على المقعد. ثم عـاد فلوح لي بيده مرتين أو ثلاثًا، عندهـا فهمت أنه يريد مني أن أتـرك المكان. قفزت من على المقعد قبل أن يدور حول المبنى في طريقـه إليَّ. وفي تلـك العجلة كدت أن أترك بـاب المكان مفتوحًا ولكن أحسست أن ذلك لم يكن من اللائق. رجعت إلى الباب ودفعته بيدي ثم جريت في الفناء ثم بين شواهد القبور إلى أن وصلت إلى قبـر العائلة حيث كانت جدتي. وسـمعت خلفـي خليطًا من صدى إغلاق الباب ووقع خُطى على الأرضية الحجرية للفناء.

وصلت إلى جدتي وأنـا منقطعة الأنفاس من الجري، وقد كانت تستعد للمغادرة إلى بيتنا، وكانت تفرك يديها لتنظف ما علق بهما من الطين.

"ما ذا حدث؟" سألتني كالعادة رغم أنها لم تلاحظ شيئًا.

"هل تعلمين، يا جدتي، أنني كنت في مكان حفظ الموتى؟".

"ومن الذي توفى؟".

"امرأة عجوز".

"ما اسمها؟".

"لا أدري، ذهبـت لأراها ولكن حفار القبور جاء من الممر الآخر وطردني إلى الخارج".

أظهرت جدتي امتعاضًا، ليس بسببي ولكن بسبب حفار القبور؛

لذلك بدأتُ على التو أحدثها بما جرى؛ كيف أني كنت واقفة بسكون وهـدوء واحترام أنظر إلى المتوفى، ثم يأتي حفار القبور ويشـير إلـيَّ أن أخـرج من المـكان. وبينما كنت أحكي قصتـي كنت أمثل الحفار وهو يلوح بيديه بقوة، وأفتح فمي (لأنني لم أكن أسـمع ما يقـول من خلال الحاجز الزجاجي) على الرغم من أنه في الحقيقة لم يقل شيئًا، ولكن كان يحرك يديه فقط.

"كيف كانت تبدو هذه العجوز؟"، سألتني جدتي وقطعت بذلك عرضي عن التلويح باليد.

"هـذا بالضبط الذي لا أعلمـه؛ لأن الحفار لم يسـمح لي برؤية العجوز!".

"ولماذا لم يسمح لك برؤيتها؟ فليلتهمها إذا أحب!".

لقـد كان رائعًا مـا قالته جدتي: أن يـأكل الحفار ميتـة. أعَدْتُ التفكيـر فيما حدث مـرة أخرى ولكن بطريقة معدلـة قليلًا، وهي أننـي أغلـق باب غرفة الموتى عمـدًا بعنف، وفي تلـك الأثناء يأتي حفـار القبور من الممر الآخـر وأنا أردُّ عليه أثنـاء الجري: "التهم عجـوزك هذه!"، ويرفع قبضته مهددًا، ولكني أختفي بين شـواهد القبور.

خرجـت مع جدتي في طريقنا إلى بيتنا. كانت تحمل وعاء لرش الزهـور والمعـول. أمـا أنا فلم أرد أن أحمل شـيئًا حتى لا تتسخ ملابسي وأضطر لتغييرها في وسط النهار.

"آخ!" قالـت جدتي ولوحت بيدها في إشـارة إلـى الضجر. ثم تركنا المقبرة والقبور المغلقة خلفنا.

حارسة الحديقة

عندما أخذوا جدتي إلى المستشفى كان بعضنا محظوظين جدًّا. كان ذلك في الصباح الباكر عندما يذهب والدي ووالدتي إلى العمل وأنـا أذهب إلى المدرسـة. كان جدي أقلنا حظًّا، حيـث إنه رافقها في سيارة الإسعاف البيضاء بياض الثلج. عندما حملها المسعفون عبر السلّم إلى الحوش حاولتْ الجلوس على الحمَّالة وكأنها تذكرتْ فجأة أن الأمر قد زاد عن حدّه، لوحت لنا بيدها وهي تحاول أن تقول لنا شـيئًا، ولكن كان فمها قد اعوجّ في جانبه حتى إنها لم تستطع أن تشـكّل الكلمات. لم يُسمع غير بعض الأصوات الممطوطة وكأن كابوسًـا يجثم على صدرها في منامها. تسـمَّرت نظرتي على عتبة البيت، على درجات السـلّم الثلاث المبنية من الخرسـانة والمثلومة أركانهـا. كان يتوجب إصلاحها وصب الخرسـانة عليها من جديد، ولكـن لم يفعل ذلك أحد. وها نحن الآن وقعنا في العار. تمامًا مثل الثقوب في الجوارب، أو الملابس الداخلية الوسـخة، يا ويلك إن لم تغيرها، فإذا ما صدمك شـيء في الشـارع، عندها تسـتلقي أمام الأطباء عاريًا، مغشيًّا عليك، ممزق الملابس، وسخًا، وكأنك شخص مسكين.

قبـل أن يوصدوا البـاب الخلفي لسـيارة الإسـعاف التي كانت عجلتاهـا الخلفيتـان تقفـان على حافـة مغرس الخيـار الناضج،

حاولت جدتي تشكيل أصوات مبهمة تقول بها شيئًا مثل «لا تقلقي»، وتسمرت عيناها في وجهي تمامًا. وفي محاولة يائسة مني للاختفاء خطوتُ إلى الوراء، فقد كانت هذه الكلمات المبهمة مؤلمة كمحاولة إقناع شخص أن اللطمة القاسية التي تلقاها هي في صالحه.

قبل هذه الحادثة المخجلة - إن وقوف سيارة إسعاف في شارع مكوّن من خمسة بيوت، لا يمكن تجاهله، وعندما انطلقت بصفارتها المعروفة لوح لها كل الأطفال في الشارع بأيديهم- كان جُلُّ همي هو الحديقة والكلمات. عندما تعلمتُ القراءة اكتشفت سر الجلوس في الحديقة بالقرب من أكبر شجيرة مزهرة. حدث ذلك في تلك السنة عندما بدأت ربط الحروف في كلمات. كانت أمي وجدتي يومها في المطبخ تقطعان البصل، تعصران عينيهما وتذرفان الدموع. الحروف الصوتية تتوافق مع ضربات النصل اللامع على اللوح الخشبي، والحروف الصامتة تتوافق مع الدموع الحارقة بسبب البصل، وفجأة انتشرت رائحة البصل وهو يقلى في الزيت المغلي معبّرة ومتملكة كل شيء، حتى إني ظننت أن الكلمات التي نقرؤها خارج المطبخ لا معنى لها، وأن مهارة القراءة السحرية أيضًا سوف تختفي، كما تختفي حِيَلي السحرية بالقبعة، والتي علمتني إياها عمتي القادمة من بلغراد، حتى فتحتُ عيني أثناء العملية السحرية ورأيت أن عمتي هي التي تضع قطع الحلوى والخنافس والحصى الأبيض الصغير في القبعة وليس قوتي السحرية التي كان يقال لي إنها لا تظهر إلا عندما أقفل عيني بقوة.

أجلستني جدتي ذات يوم في الحديقة بين مغرس الخس

ومغـرس البصـل، والكتـاب في يدي، علـى أحد كراسـي المطبخ كنـت قد تعلمت القراءة والكتابة عليه. قرأت عنوان الكتاب، الوردة والسيف، وتأكدت من أنني في الهواء الطلق أستطيع ربط الحروف فـي كلمـات، ثم ربـط الكلمات في جمـل أيضًا. بعد هـذا وضعت جدتـي الكرسـي بالقرب من حوض زهـور الزينـة المصنوع من عجلة شاحنة وُضِعتْ بها أحسن أنواع التربة السوداء، وطَلَبتْ مني بفخر أن اسـتمر في القراءة، وفي ذات الوقت أحرس الحديقة التي لا حـارس لها، إذْ كنـا كلنا في المطبخ غيـر مكترثين بينما تظهر الثمار على كل نبات فيها.

روايـة الـوردة والسـيف الكبيرة التـي انتقدتها عمتـي بقولها إنها غير مناسـبة لطفل مثلـي، تبدأ بالعربـات وبحفيف الملابس الحريرية الواسـعة، بوقع حوافر الخيـل، بهبوط الظلام وبالقبلات تحت غطاء الوجه بين الرجل الخفي والمرأة الجميلة الهاربين على الـدوام بينما يبحـث أحدهما عن الآخر. في هـذا الوقت كانت ثمار الفراولـة بدأت تظهـر جميلة في حديقتنا، وفـي جوانب أحواضها الكبيـرة بـدأ بعضهـا يميل إلـى الاحمـرار، وهذه هـي التي يجب حراسـتها مـن النهمين. عندما قـرأت في الرواية عن أنثى اسـمها المقصلـة، لا يحـب أحد أن يسـتلقي تحتها، رأيـت أول لصّين في وقـت نضوج الفواكه فـي حديقتنا. كانت أمًّا بمنديل على رأسـها وأقـراط غليظة، وابنهـا النحيف برباط يغطي إحـدى عينيه. كانا عائدين من مستشفى المدينة التي تقع معزولة في أطراف المزارع البعيدة. هناك طريقان يؤديان إلى المستشـفى: الأول طريق معبّد للمشـاة، وكثيـرٌ من الناس كان يظن أن السـير عليه أسـرع؛ ولذا يسـلكها في الصباح الباكـر الذين يعتقدون أن شـفاءهم ليس إلا

مسألة وقت. أما الذين كانت أمراضهم شديدة، أو كما قالت لي جدتي، ذوو الأمراض المزمنة والخطى الثقيلة، فكانوا يعودون من مقابلة الأطباء والممرضات إلى المدينة عبر الطريق النائي الطيني غير الممهد، يمشون ببطء وكأنهم يزحفون على صخور، منكسين رءوسهم قابضين على أطرافهم المريضة مركزين تفكيرهم على أسرارهم المرعبة. مد الابن المريض يده إلى ثمرة الطماطم التي قد قاربت على النضج، والتي كعادة بقية الثمار في الحديقة تبدأ في النضوج على حافة الحديقة. أطبقت الكتاب على صفحة 134 بصوت صاخب وقمت منادية: "صباح الخير"، تمامًا ككل الأطفال ذوي التربية الحسنة الذين لا يتحملون النفاق ويلقون التحية بصوت عال وإن لم يُعِرْهم الكبار أي انتباه. عندها جذبت الأم المتلبسة يد ابنها إليها بقوة وقالت بهمس ولكن بصوت يمكنني سماعه، ألّا يمد يده ويقطف الثمار من حدائق الآخرين، وكانت أقراطها ترقص بعصبية. انفجر الابن بالبكاء، وكان ذلك كما أعتقد بسبب اللعاب الذي سال سدى، وليس بسبب الشعور بالخجل، وحتى عندما كانا يبتعدان أمتارًا عن حديقتنا كان يمد يده نحو الطماطم الناضجة وينظر إليها بيأس من خلال رباط عينه.

تقدمت إلى حافة الحديقة على جانب الشارع، ومن دون تفكير قطفت ثمرة الطماطم، أنقذتها على التو وأخذتها إلى مطبخ جدتي، وضعت جدتي نظارتها وفحصت الثمرة من كل الجوانب وقالت: "نعم، إنها حقًا ناضجة". قلت لها إنني قطفتها لأنها كانت على حافة الحديقة بجانب الشارع معرضة للمارين، وإنني بالكاد أنقذتها من طفل وقح أعور.

"هل كان الطفل قادمًا من عيادة العيون؟ كان يمكنك أن تتركيه

يأخذها، فليقطف المسكين الطماطم ويتمتع بها، فهو بالتأكيد لا يعرف أحسن من ذلك". قالت لي جدتي ووضعت النظارة على المائدة بجانب الطماطم التي بدت من خلف عدساتها كبيرة جدًّا.

كنت دائمًا أعتقد أن هناك سببًا ما لوضع المستشفيات بعيدًا عن المدينة، على أطرافها بعيدًا عن الشوارع والمحلات والناس الأصحاء. ولسبب ما لا أعرفه يسلك العجزة ذوو الأمراض المزمنة الذين يذهبون عبر الطريق المعبد إلى المستشفى ويعودون عبر الطريق الطيني، شارعنا عند عودتهم إلى المدينة. كنت في بعض الأحيان أتحدث معهم، ولكن لم يَدُرْ ببالي قَطّ أن أتخلَّى لهم عن بعض نِعَم الحديقة، وبالأخص عندما تكون ثمار الفراولة قد أينعت. كنت لا أقرأ كتابي في الحديقة فقط ولكن أيضًا في غرفة النوم خلف الستائر الخشبية للنافذة وألاحظ الشارع من خلال الشقوق. كانت ثمار الفراولة الناضجة تستهوي كل المارة حتى الذين لم يكونوا عائدين من المستشفى. أغرت الفراولة حتى فلاحًا وزوجته على عربتهما تعوّدا أن يعبران شارعنا منذ سنين. عندما هممت بالصفير من خلف شقوق الستائر كما كانت عادتي لطرد الأيدي السارقة التي تمتد إلى الطماطم والفلفل والبصل والثوم وحتى البازلاء في حديقتنا الرائعة المتفتحة، حدث شيء في غاية الإهانة. نزل جدي فجأة من سيارته حيث كان يعمل كسائق ويحب الجلوس في سيارته طيلة العصرية ويقوم بإصلاح شيء فيها أو يلمعها وينظفها، أو يقوم بتهويتها، أو يستنشق التبغ فقط. عندها أسرع إلى الفلاح وزوجته وهما على عربتهما التي يجرها حصان ودعاهما أن يقطفا ما حلا لهما من الفراولة، لأنهما اللذان جلبا السماد للحديقة. لم أستطع القبول بالمقارنة البليدة بين السماد

العفن والثمـار الحمراء الحالية. ولكني ركنت إلى السـكون خلف الستائر الخشبية، ومن خلال الشقوق كنتُ أرسل نظرات سامة إلى الفلاحة التي نشـرت مئزرها الأزرق الغامق واسـعًا، وكانت ترمي الفراولة فيه بدون مبالاة، حتى الخضراء منها التي كانت في السر أشهى ما أحب.

في الأيام التي تلت محاولة سـرقة الطماطـم الناضجة ومبادلة السـماد بالفراولة، كنت أطيل الجلوس في الحديقة أقلب صفحات كتابـي الكبير وهو على ركبتي غارقة في عالم الحروف المترابطة، حيث يتكرر ذكر الثورة الفرنسـية أكثـر من المقصلة، الثورة التي تصاحب كل الأشخاص في الكتاب. كنت أذهب إلى الحديقة باكرًا؛ ولهـذا ظلـت فترة طويلة دون أن يمسـها أحد، لـم تقطف ثمارها يد، ولـم تدخلها رِجْلٌ لتـقـف على الطريق المحفـور بعناية بين مغارسـها وأحواضها، حيث لا يمكن المشي إلا مع التركيز وحفظ التـوازن بوضع قدم أمام الأخـرى، وهي مهارة لا يجيدها المرضى بالتأكيد.

إلى أن أتي يوم خرجتُ فيه أمي لتدلق مياهًا وسخة في الشارع أمام البيت، واشـتبكت في حديث مع فتاة نحيلـة لا أعرفها، كانت فـي طريق عودتها من المستشـفى عبر الطريـق الطيني رغم أنها كانت تبدو معافاة نسبيًّا. أخذت أمي تعرض عليها الفراولة، و- يا للكارثة- حتى العليق الجميل والكشمش الأحمر، رغم أنه كان لدينا شـجيرة واحدة فقط من كل نوع؛ لذا كانت الشـجيرات قريبة جدًّا من البيت أمام المدخل. كانت الفتاة تشـير برأسـها علامة الرفض وتشير إلى بطنها. وبما أن أمي قد أبدت اهتمامًا كبيرًا بهذه النحيلة التـي تلبس بنطالًا ضيقًا، بدأت الفتاة في مسـح دموعها وأضافت

بعض الكلمات عن غسيل المعدة والحبوب، الأمر الذي تسبب في امتناعها، والحمد لله، عن قبول شيء من ثمار الحديقة، وبعد ذلك بقليل غادرت مودعة. أشرت إلى ظهرها النحيل بإصبعي قائلة ومعاتبة إني أنا أكثر من يحب فاكهة الكشمش الأحمر. انحنت أمي في تكتم وهمست في أذني: "اتركيها، إنها مجنونة".

وعندما أنهيت قراءة كتابي الأول، وفيه أخيرًا تلتقي الثورة والمقصلة، رغم أن ذلك لم يذكر بوضوح؛ ولذا فإن كثيرًا من أقاربي لا يفهمون الكتب، أهدتني جدتي للقراءة في أثناء حراسة الحديقة كتابًا عن الأرواح قائلة إنه يوجد أيضًا هذا العالم الآخر. أحببت أن أعرف ما هو العالم الآخر هذا وأين يقع عندما نكون نحن في العالم الأول. كان غلاف كتاب عالم الأرواح الغريبة أسود اللون ممزقًا؛ لأنه، كما يقال، حاول أحدهم انتزاعه من يد حامله بالقوة . تنقل هذا الكتاب من يد إلى يد، ولكن اليد التي نُزع منها كانت لميت.

عندما زارتني بنت الجيران فيسنا لم أتركها تزعجني أثناء هذا العمل النادر، والذي ليس متاحًا للكثير مثل القراءة عن العالم الآخر؛ لذا قرأت لها بصوت مسموع عن الشبح الذي لم يتكلم قطّ، وإنما كان يربت بخفية على أكتاف الناس من الخلف. كان يمكنك رؤية هذا الشبح، ولكنه يقف دائمًا خلفك، ولم يكن هناك شخص في الدنيا يستطيع الالتفات بسرعة حتى يستطيع رؤيته وطرده.

كان هناك رجل قادم عبر الطريق الطيني، وكان يضع قبعة على رأسه. تركنا القراءة أنا وفيسنا وجلسنا منحشرين معًا على الكرسي ووضعنا الكتاب على ركبتينا. غطينا أعيننا بأكُفّنا لنحجب أشعة الشمس القوية ونحن نراقب الرجل الغريب وقبعته. وكان

شيء ما يلمع في رقبته، شيء أبيض.

"عجوز" قالت فيسنا.

هززت رأسي بالموافقة.

"يجب ألّا نقترب كثيرًا" قالت فيسنا وأخذت تتلفت حولها. نهضنا معًا كمن يطيع أمرًا عسكريًّا وتركنا الكتاب على الكرسي ووقفنا على حافة الحديقة بجانب الطريق. أخذ الرجل الغريب في الاقتراب. حذاؤه الملمع لا يزال يقاوم الغبار ويصدر صفيرًا كأنه جديد لم يستعمل. كان قميصه يبدو وكأنه قد غطّاه العرق ولكنه لا يزال أبيض. خط المكواة في بنطاله لا يزال حادًّا لم يُمَسّ.

"يوم سعيد" كانت تحيتنا في صوت واحد وأيدينا مخفية خلف ظهورنا.

توقف الرجل وأجال النظر حوله في ارتباك، وكأنه لا يرى كل ما يقع تحت حزامه. ثم وقع نظره علينا. وفي حركة مسرحية رفع يده ولوح بكفه مثل رجال الدولة المهمين الذين يمكن شتمهم عندما يظهرون على شاشة التلفزيون.

ضحكنا وغمزت إحدانا الأخرى وحييناه مرة أخرى، فهو كما يبدو لم يسمعنا في المرة الأولى. وحتى في المرة الثانية لم يرد علينا التحية رغم أنه كان يفتح فمه بشدة.

"معذرة!" قالت له فيسنا، "أنا لا أسمعك".

عندها اكتشفنا أن الرجل ذو القبعة يتكلم ولكن بصوت خافت وكأنه يهمس. كان يريد أن يشير إلى الحبال الصوتية، ولكن همسه

كان أشبه بخشخشة الأغصان الجافة في النار.

"هل أنت أبكم؟" سألناه في صوت واحد, أشرنا إلى أفواهنا بأصابعنا وحركنا كفينا يمنة ويسرة في إشارة إلى عدم القدرة على الكلام. دائمًا تستخدم الإشارة بالأصابع والكفوف وبنفس الطريقة إلى العمي والصمم والبكم والالتهاب الرئوي والنكاف واستئصال المعدة والكسور والأزمات القلبية. هذا التعبير بالإشارة والذي لا يخطئ فيه الكبار هو الذي يجلب الأمراض.

كانت ابتسامة الرجل ذي القبعة جذابة، أسنان بيضاء تبرز بينها في الأمام سن ذهبية تلمع.

أشار برأسه علامة الإيجاب وأشار إلى حنجرته وحرك كفه في علامة النفي. فتح فمه، وحشرج بصوت مرتفع.

"لا أفهم شيئًا" قلت له.

ردت فيسنا: "يقول إنه قد أجريت له عملية، أنصتي قليلًا".

رددتُ بالموافقة بحركة من رأسي.

"الآن يقول إن عنده جرحًا مفتوحًا تحت الرباط" أضافت فيسنا، وكانت عيناها مسمرتين على فمه وعلى كلماته المتحشرجة.

هززت رأسي بالموافقة.

"يقول..." وسكتت فيسنا، "يقول... إذا أردنا سوف يرينا الجرح".

"نعم" قلتها قبل أن تبعد صديقتي نظراتها.

رفع رأسه وأمسك برقبته وتلمسها ثم فتح شيئًا سيُذكِّرني طيلة حياتي بباب صغير مدور. للوهلة الأولى لم يظهر خلف الباب الصغير غير شيء محمر، شيء حي، يشبه حيوانًا صغيرًا مجروحًا محبوسًا، وكأن أحدًا أخفاه عن عيون الآخرين. إن شيئًا غير متوقع كهذا يبقى عالقًا في ذاكرتنا.

ارتفعت قليلًا على أصابع قدمي حتى أرى بطريقة أفضل. عندها كان الباب الصغير قد أقفل بناء على رغبة فيسنا التي لم تستطع صرف نظرها عن الجرح بسبب الصدمة. وكانت طيلة الوقت تهز رأسها في إشارة إلى عدم الموافقة وتلوح بيدها وكأنها تقفل الباب الصغير الأبيض وهي تقول: لا، لا، لا يمكنك فعل هذا!

ابتسم الرجل مرة أخرى وهو مسرور بعرضه الرائع الذي خلق حالة من الدهشة والخوف المتأصل. لوح بيده ومشى يحدث صفيرًا بحذائه في طريقه إلى المدينة. لم يُعِرْ ثمار الحديقة أي انتباه، أما صديقتي فيسنا فلم تسمح لي بعد ذلك أن أقرأ لها أي شيء أو أن أحدثها عن الأرواح. حتى القصة عن الشبح الذي يقف خلف الناس ويربت على أكتافهم لم تحب أن تسمعها إلى النهاية. ولم تأتِ إلى حديقتي إذا وجدتني فيها بمفردي.

ذات مساء في أيام الخريف أخذت أفكر عن ماذا يأكل الرجل ذو القبعة والجرح المفتوح في رقبته؟ البازلا الخضراء الرخوة؟ أم الطماطم المتعفنة؟ أو لب الجوز الأخضر؟ أم عصير الخيار أم الفراولة بالسكر؟؟ وهكذا فكرت طويلًا في ذلك الرجل. ولما سألت أمي كيف يصبح الإنسان أبكم، كانت كعادتها تأخذ قِدرًا كبيرة من الماء المغلي في فرن ملتهب، سقطت القدر من يديها لأول

مـرة في حياتهـا. انكفأت القدر وانصبَّ المـاء المغلي على رجلها اليمنى. كانت صيحتها شـبيهة بصوت غراب بعيد يطلب الثلج في أواخـر الخريف، رغم أني أعلم أنها صرخت من الألم بأعلى صوتها مـرات عديدة، حتـى إن جدي وصل إلـى الغرفة هو يـردد: ماذا؟ ماذا حصل؟ وفي صوته تسـمع نغمة غضب يتصاعد كما يتصاعد البخار من الماء المغلي المصبوب على رجل أمي.

"لقد انسكب قليل من الماء على رجلي" ردت أمي وأخذت تبكي.

"كيـف؟ قليـل؟ إن هـذه حروق من درجـات مخيفـة! هيا بنا، البسي، سنذهب إلى المستشفى".

لأول مرة نذهب إلى المستشـفى في منتصف الليل. أما الحديث عـن درجات الحـروق فقـد كان مرعبًا. كان النـاس يتحدثون في المستشفى وفي شارعنا عن درجات الحروق وكأنهم يتحدثون عن زلـزال مخيف كاسـح. عندما عادت أمي من المستشـفى وتخطت عتبـة الباب برجـل مربوطة بلفافات من الفخـذ حتى القدم، وكان عليهـا أن تريها للطبيب كل يومين، جاء إلينـا الجيران، وبالأخص الجارات اللاتي كن يتعمقن فيما كان يمكن أن تفعله أمي على التو عندما سـلق الماء المغلي جلد رجلها؛ أن تأخذ من الثلاجة عشرين بيضة وتكسرهن على رجلها المحروقة، نعم هكذا ومن المستحسن مع البياض أيضًا. بل تضع الحروق مباشرة تحت ماء الحنفية لمدة عشـر دقائـق مع عدم النظـر إليها ولكن إلى السـقف أو إلى قطة صغيرة حتـى تجذب الإصابة إليهـا. أو أن تدعك بعض الوحل مع ديدان حية في خلال نصف سـاعة من الحادث. أو تأخذ حبة دواء أيًّا كانت بشرط أن تكون بيضاء اللون. أن تستدعي الدكتور. أو تمر

بجانب المقبرة عدة مرات. أو تدهن الحروق بكريم نيفيا عادي. كل هذا كان يبدو كتمائم ضد الجروح والكسور والأمراض الخبيثة والحيل السحرية المضحكة والتي تختفي عندما نفتح أعيننا.

لما حملت سيارة الإسعاف جدتي التي أصيبت بالشلل والبكم في جانب واحد، وكان جدي إلى جانبها، أسرعت إلى المدرسة كما لم أفعل من قبل؛ لأن العجائز والعجزة جاءوا إلى بيتنا ودخلوا حديقتنا؛ لذا كنتُ أكثرنا حظًّا حيث كنت أبقى في المدرسة، لأننا كنا نبقى في المدرسة بعد انتهاء الدرس، أمَّا بعد انتهاء العمل فلا يمكنك البقاء. لمَّا رجعت إلى بيتنا ذهبت إلى فيسنا لأتناول طعام الغداء؛ لأنه بعد أن جاءت سيارة الإسعاف إلينا فجأة لم يطبخ أحد في بيتنا فترة طويلة.

كل يوم في الصباح عندما تكون مدرستي بعد الظهر ووالدي في العمل أحاول أن أنظف الحديقة من الأعشاب الضارة. كان الخريف كريهًا رطبًا، بدون أوراق صفراء أو ضوء أحمر، كان خريفًا كما كانت تتحدث عنه جدتي قائلة إنه لا نهاية له. عندما كنت ألتقط الخيار الناضج والفلفل والطماطم التي بقيت خضراء والتي تناسب المخللات فقط، نظرت في اتجاه المستشفى الذي يقع في الأطراف النائية للمدينة، فكرتُ أن جدتي الآن تسحب جسمها في ممراتها. في بعض الأحيان كنت أجلس في الحديقة، كنت أفضل فترة ما بعد تناول الغداء عند الجيران، يومها أخذت كتابًا أحمر كنت قد حصلت عليه من عرّاب تعميدي، وعليه رسم ذهبي وعديد من الصور. الرجال والنساء والأطفال في هذا الكتاب يحبون أن يفعلوا كل شيء بالعكس، حتى لو كانوا يعلمون الإجابة الصحيحة والتصرف الصحيح يتصرفون على العكس، حتى إن

آلهتهم الصغيرة والكبيرة كانت دومًا تحذرهم. ثم هاجمهم الجراد الكبير والذباب والضفادع والبعوض والدمل والبرد وظلام دامس دام ثلاثة أيام، وهكذا أصبح العجائز في كل مكان.

ولكنهم لم يعودوا يأتون إلى حديقتنا. في ذلك الخريف كانت الحديقة تقبع معزولة ليس فيها من ثمار أواخر الخريف شيء. كانت نظرات المارة لا تعير الحديقة القاحلة أي اهتمام وتتركز أكثر وأكثر عليَّ وأنا أجلس على الكرسي وأقرأ وأضع كل يوم ملابس أكثر دفئًا. إلى أن تحول الخريف ببطء ودون أن نشعر إلى شتاء بارد مظلم. لم يعد في استطاعتي الجلوس أو الوقوف في الحديقة، بل كنت أتمشى على الطرق الضيقة بين المغارس التي تغطيها طبقة سميكة من الثلوج، وتحت هذا الغطاء السميك لم يعد يظهر أي شيء. إلى أن نَمَتْ من الثلج بجانب الجدار المتجمد في الجهة الجنوبية من البيت أغرب زهور رأيتها آنذاك، صفراء فاقعة اللون وحمراء ولكن لها ملمس القش وكأنها غير حقيقية أو قد جفت منذ سنوات.

"يا جدي! ما هذه؟" سألته يومًا أثناء تساقط نِتَفٍ من الثلج: "هل هذه الزهور حقيقية؟".

"كيف لا تعرفين أي زهور هذه؟ اشتريناها هذه السنة في الربيع لأول مرة. طبعًا حقيقية وحقيقية جدًّا!" انحنَى جدي ونكش زهورها الجافة بشقاوة وقال:

"هذه هي زهور يعيش بالقوة[4]".

4- هكذا يترجم الاسم الشعبي المحلي الذي يطلق على نوع من حرشوف الأسطح.

«ومن الذي أعطاها هذا الاسم الغريب؟».

هـز جدي كتفيه في إشـارة إلى عـدم علمه قائـلًا: «من يدري! الطبيعة ذاتها هي التي أعطت هذا النبات هذا الاسم. يعيش بالقوة، ليزهر دائمًا، ورغم كل شيء يعيش. وذلك أسهل إذا أصبح جافًا».

المارة من العجائز كانوا ينظرون إلى زهور نبتة «يعيش بالقوة» الصفراء كالشـمس أو الحمراء وهي تنبت من تحت الثلج السميك، بشـيء من الشـك والريبة. إنها نبتة تبتعد عنها أيـادي اللصوص النهمة كما تبتعد عن صفحـة الموقد المحماة، ولكن أعينهم، أعين المارة، لم تتَّسـم بالحذر مثل أيديهم، تركـزت أعينهم على الجدار الـذي ينمو بجانبه نبات «يعيـش بالقوة»، كانـت العيون تريد أن تنظر عـن قرب وتلتهم الزهور الفاخـرة والجافة كالقش. إذا كنتُ موجـودة أثناء ذلك في الحديقة، أقوم بصك الغلاف الأحمر للكتاب الكبيـر بقـوة حتى تقفز النظـرات بعيدًا. أما إذا كنت أتمشـى في الحديقـة بدون كتاب في يدي، فأتمتم بكلمات منه، بكلمات مبهمة غامضة تخيف العجائز. «ميني، ميني، تيكو، أوبهارسين».. كلمات كانت تخيفني عندما أنطقها.

أتيـت علـى الكتاب كلـه في نهاية الشـتاء. عاد جـدي يومًا من المستشفى مسرورًا لأن جدتي استطاعت أن ترفع يدها فوق رأسها وتنطق بعـض الكلمات الصعبة مثلًا: "ضـروري، برنيطة، صبر، فطـر، ماسـورة، رعد، ضامرة، يضـرط، يبرق". لـم أفهم فرحته. لم أسـتطع أن أتخيل ماذا سـوف نفعل في بيتنا. ماذا سنفعل في الحديقة، إذا لم نبذر في أوائل الربيع فلن ينبت شيء فيها.

لمـا نُقل جدي أيضًا في الربيع إلى المستشـفى، اسـتعرتُ أول

كتاب للأطفال من مكتبة المدرسة. قرأته في سريري في المساء. كان الكتاب عن فتاة تدعى كاتكا، تبدو في الرسومات ممتلئة الوجه حمراء الخدين، لذا ليس غريبًا أنها تحمل معها دائمًا عدة كيلوجرامات من التفاح توزعه على زملائها وزميلاتها في المدرسة، وهكذا تنشر الدفء في فصلها . ويظهر في الكتاب أيضًا كلب عاري الجلد، يستطيع الكلام ولكن بكلمات مملة حتى إنه من الأفضل لو أنه كان ينبح. وهناك رسومات لأشجار الصنوبر، التي تشفي رائحتها الزكية الأمراض، وعادة ما كنت أنام وفي يدي مثل كتب الأطفال هذه. في الليل كان الشبح الأبكم من ذلك الكتاب عن الأرواح يأتيني ويربت على كتفي بأطرافه الباردة التي لا تشبه الأيدي ولا الأرجل، وبالأحرى لا تشبه شيئًا. كانت محاولاتي للالتفات قد ذهبت سدًى، لم أكن سريعة حتى أستطيع أن أراه خلف ظهري وأطرده من نومي.

ذات يوم كنت مستلقية، وكانت درجة حرارتي عالية، وغالبًا ما كنت أغفو في نوم متقلب. يومها فكرت أنه إذا جاءني الشبح المخادع وربت على كتفي فلن ألتفت، ولكن سأمسك بطرفه الغريب وأرميه فوق كتفي إلى الأمام، ولكن انساب عليَّ مسحوق أصفر كثيف.

انتبهت من نومي على يد تمسك كتفي وتهزني. كانت أمي تقف على جانب السرير وهي تحاول أن توقظني من النوم؛ لأنه يجب أن نذهب لزيارة جدي في المستشفى. كان جلد رِجْلها بعد أن تعافت جافًا وخشنًا يكاد يشابه القش.

سُلَّمٌ إلى السماء

كانت إيزا بنت الجيران ترعاني طفلة، بل حتى عندما كنت رضيعة. هكذا أخبرتي أمي وأخبرتني إيزا نفسها. ولكن الآن لا يحرسني أحد لأنني قد كبرت، وحين بلغت الرابعة من عمري كنت قد أرهقت الجميع. إيزا تبلغ الخامسة عشرة، وهذا عدد كبير من السنين، لا أدري تمامًا كم ذلك، ولكنها سوف تبدأ عما قريب في الشيخوخة.

وفوق ذلك هي الآن على الجانب الآخر من السياج؛ لذا أجلس أنا وهي على جانب من الشارع على السياج الفاصل بين بيتهم وبيتنا، والذي كان سببا في النزاع الشديد بين أبيها وجدي قبل سنين، فقد بنى والداها، وهم أقرب الجيران إلينا، أعمدة حجرية على مسافة عشرين سنتيمترًا خارج حدود أرضهم وفي عمق الأرض المشاع بين حديقتهم وحديقتنا. بعد ذلك، وعلى الرغم من الأعوام الطويلة من التقاضي في المحكمة، لم يتغير شيء، فالحدود المفتعلة لا زالت كما هي، أمَّا النزاع بين أسرتينا فما زال قائمًا طالما هم على قيد الحياة، حتى إنني لم أستطع الذهاب إلى إيزا، ولا هي قادرة على المجيء إلي؛ فكنا لهذا نجلس على الحدود بيننا، فلا هي

عندي ولا أنا عندها.

من يوم تركتْ إيزا القيام برعايتي وهي غالبًا تحاول استفزازي. وهكذا كان أمر سـلّم السماء. سـألتها ذات يوم: هل يمكن الوصول إلى السـحاب هناك حيث يبـدأ الطقس، ثم إلى السـماء؟ ضحكت وسألتني:

«من قال لك إن الطقس يبدأ هناك؟».

«جدتي! في السحاب يبدأ الطقس».

«وماذا تريدين من الطقس؟ ماذا ستفعلين في السماء؟ ملل!».

«لا أدري.. أريـد أن أعرف فقط! يقال إنهم في السـماء ينظفون الفاصوليا البيضاء».

سألتها: «كيف أصعد إلى هناك؟ كيف أصل إلى السحاب؟».

أخبرتني إيزا أن أسـهل طريقة إلى ذلك بالسـلّم. سألتها: بذلك السلّم الذي نستخدمه في القبو؟ لا، ليس بذلك السلم. بالسلم الذي نستخدمه تحت سطح البيت؟ لا ولا ذلك.

«كل السـلالم التي لديكم قصيرة لا تصل إلى السحاب» كان رد إيزا.

نظرت إلى السـماء والسـحب الطافيـة في الأفـق وعرفت أنني سأحتاج إلى سلم طويل حقًّا.

«من أين تعلمين كيف يكون طول هذا السلم؟» سألت في إصرار.

«طبعًا أعلم، فنحن لدينا هذا السلم».

أردتُ أن تحضر السلم في الحال لنصعد معًا إلى السماء. فكرت أنه من الأفضل أن نكون اثنين، فقد كنت وحدي خائفة من السلّم، قد يكون ذلك لأنني كنت ممنوعة من التسلق على أي سلم سواء الذي في القبو أو الذي تحت سطح البيت. لم أكن أدري كيف يمكن أن يقف السلم هكذا في الهواء، وهل سيكون بالإمكان إسناده إلى سحاب ثقيل أسود، أو أنه بالإمكان إسناده إلى بيت، أو غرسه عميقًا في الأرض، ولكن ذلك لم يقلقني كثيرًا. إذا كانت إيزا تقول إنه بالسلم المناسب يمكن الصعود إلى الطقس وإلى السماء، فإن ذلك ممكن حقًا.

«أحضري السلّم! سأساعدك في حمله. أين تحتفظون به؟» رجوتها بفرح.

«لا أشعر برغبة في ذلك الآن. من المحتمل أن السلم تحت السطح. إنه طويل جدًا لا يمكن أن يحمله إلا والدي».

سألتها: «كم طوله؟ أريني كم طوله في الشارع؟ إلى أين يمكن أن يصل لو وُضع على الأرض؟».

مدت إيزا إصبعها بعيدًا مشيرة وقالت إن هذا السلم لو وضع على الأرض لامتدَّ من شارعنا إلى البيت الأخير في قرية راكيتشان على بعد كيلومترات وكيلومترات من هنا. لهذا سوف يجب أن نتسلق بعيدًا، أو على الأصح عاليًا؛ لأن السلم سوف يقف مستقيمًا. ولكن إيزا قالت عند ذلك إنها ستذهب لتحضر الحليب من قرية راكيتشان، وإنها سوف تفكر في السلم عندما يكون عندها وقت لذلك طبعًا. لقد كانت كبيرة بعض الشيء فلا يمكنها الحديث بجد عن الصعود على السلم إلى الطقس. كانت غالبًا ما يبدو لها أن

هناك شيئًا هامًا ما في انتظارها، شيئًا لا يمكن تأجيله لأنه أهم مما تفعله حاليًا، وكانت تتكلم عن الوقت بحماسة. كل البنات البالغات اللاتـي يتكلمن عن الوقت كن يتبادلن النظرات مع الأولاد، فلم يكن بعد ذلك أي فائدة من اللعب معهن.

فـوق ذلك نسـيت تمامًا أن أباهـا لم يعد يزورنـا منذ أن «صار السـياج الفاصـل بيننا فـي المحكمة» كمـا تقول جدتـي. وكنت أتساءل دومًا: ماذا يفعلون بالسياج في المحكمة فهو في الحقيقة فـي مكانه هنـا؟ ولكن بعد كل مرافعة فـي المحكمة عندما يذهب جدي وجدتي في ملابس سـوداء وكأنهما ذاهبان إلى جنازة، وكانا علـى غير عادتهما اليومية يضعان قبعات قبيحة تفوح منها روائح النافتاليـن الكريهـة، ثم كانا يعودان إلى البيـت متعبين مصفرين ترتعش أيديهما وهما يسـبان ويلعنان؛ لذا لـم أذكر لهما أي كلمة عـن الصعود إلى السـماء من خلال السـحاب، ولا عن أنني أخطط مع إيزا للحصول على السـلم الكبير ثم في يوم تكون فيه السـحب كثيفة رمادية اللون ثقيلة ولا تتحرك سنسند السلم عليها ونتسلقه إلى السحاب الذي لا يمطر. أو سنغرس قوائمه السفلية في أرض لا يملكها أحد بين سـياجنا وسياجهم. جدّي سينفجر من الغضب لو كنت غبية وقلت له إنني أريد أن أتسـلق سلم الجيران. عندما خسر جدي وجدتي أول دعوى بالمحكمة ضد جارنا، جذبني من يدي إلى وسـط حوشنا وأشار بيده الطويلة عبر السياج الفاصل إلى حديقة الجيران وتكلم بفحيح قائلًا: «هل ترين؟ هل ترين ما هناك؟ أرض الجيران، أرض الغريب. احذري أن تتخطي هذا السياج!».

أومأت برأسـي بحزم أنْ لا، وكأن فكرة عبور السياج لا يمكن أن تخطر ببالي. كنت أعلم أنني سوف أعبر السياج خفية. ولكن لقائي

بإيزا بين السياجين الفاصلين كان هو الحل الأمثل: لأن السير على الحزام الذي لا يملكه أحد لا يعتبر عبورًا للحدود.

قلت لإيزا للمرة المائة» لماذا لا تحضرين السلم؟».

«لا أدري. لا أســتطيع» ردت عليَّ. لاحظت أنها في الآونة الأخيرة تحب مضغ أوراق الحشــائش الحامضة وترنو بعيـدًا نحو القرية المجاورة.

«اذهبي إلى تحت ســطح بيتكم وأحضري الســلم! لقد ســئمت منك!» قلت لها بإصرار.

ضحكت إيزا مني مثلما تضحك من الأطفال وقالت: «بعد الظهر، سأحضره بعد الظهر».

ولكــن في ظهــر ذلك اليوم طوَّق حياتَها ســياجٌ جديد. لقد رآها أبوها عندما أخــذت الدراجة وكانت في طريقها إلى صديقها الذي كانت من أجله مضغت العديد من أوراق العشــب وهي تنظر بعيدًا إلــى بيتــه في نهاية القرية علــى بعد كيلومترات. لمــا حاولتُ بعد الظهر زيارتها ســرًّا قالت لي أمها إن ايــزا في الحبس المنزلي ولا تســتطيع أن تتــرك غرفتها، فمــا بالك بالبيت؟! تســللت إلى تحت شــباكها وناديتها بصوت خافت. أطلَّتْ برأســها من الشباك، ولكن لما رأتني انطفأ بريق الاهتمام في عينيها الحمراوين المنتفختين.

«مــاذا تريديــن؟» ســألتني بصوت غاضــب، «تعلميــن أنني لا أستطيع الخروج من البيت».

«السلم!» همست لها.

«أي سلم تقصدين؟».

«ذلك الطويل، أكبر سلم، الذي عندكم تحت سطح البيت».

«لا يوجد لدينا شيء تحت السطح. ليس هناك سلم».

«أين هو إذن؟» همسـاتي العالية بدأت تتحول إلى صراخ. «لقد وعدتِني به بعد الظهر».

«خفضي صوتـك حتى لا أتلقى صفعات أخـرى! اذهبي بعيدًا! فأنت ممنوعة من الدخول إلى حوشنا».

«قولـي لي من فضلـك، أرجوك، أيـن تحتفظون به؟ سـأحمله بمفردي». رجوتها من تحت النافذة.

«لا يحق لك المشي في حوشنا!» همست لي إيزا بهستيريا وتدلت قليلًا من النافذة، «ليس عندنا سـلم كبير. تذكّري ذلك واغربي من هنا عبر سياجكم طالما لا يزال قائمًا».

حزنـت كثيرًا على السـلم المفقود. ليتنـي أدري ماذا حصل له. وعندما أرسـلوا إيزا بعد مرور أيام من الحجـز المنزلي إلى عمتها في ماريبور لتقضي عقوبة إصلاحية، تحول حزني على السلم إلى حزني على صديقة عزيزة طردتني في آخر لقاء.

وأصبح الحزام المشاع بين سياجهم وسياجنا فارغًا.

عندما مات جدي، سـمحوا لي أن أتسـلق كلا السلمين، الذي في القبـو والذي تحت سـطح البيت. لـم يقلق أحد أن أسـقط أو تدقّ عنقـي. كانت هنـاك أمور كثيرة كنـت لأجلها أضطر إلى التسـلق صعودًا وهبوطًا على السـلم، وبالأخص إلى تحت سطح البيت بين

الملابس القديمة والكتب والصحف الصفراء والصور الفوتوغرافية التي لسبب أو لآخر لم تكن مناسبة لألبوم العائلة. في هذه الصور يظهر أناس غير معروفين، وبعض الأصدقاء الذين لم يعد يتذكرهم أحد، أو صور لأماكن غير معروفة, شواطئ أنهار، شوارع وأحواش. بين تلك الصور كانت حزمة من الصور ملفوفة في ورق أبيض ويربطها شريط سميك من المطاط. تقدمت نحو نافذة السطح وفي تلهف مزقت الورقة تحت نور النافذة، في هذه الحزمة كان هناك صور عديدة للسياج قام بتصويرها مصور المحكمة، وكانت تستخدم لبراهين أن جارنا بوضعه الأعمدة الحجرية خلف السياج قد تجاوز حدوده إلى سياجنا. هذه الصور لا تحمل ذكريات طيبة للعائلة. خمسة أو ستة أعمدة في الأمام على السياج الفاصل، وفي الخلف حديقة الجيران من زوايا عديدة. ولكن في لقطة واحدة فقط يُرى بيت الجيران وهو لا يزال أبيض يستند عليه سلم طويل كبير تتجاوز نهاياته سطح البيت ولا تظهر حتى في الصورة.

فاشينيك أو التنكر بالأقنعة

ربطتُ منديلًا بذؤابات لامعة حول رأسي مثلما تفعل الممثلات كما شاهدت في الأفلام التليفزيونية. لففت حول رقبتي شالًا طويلًا قرمزيًّا من الحرير. ولبست بنطلونًا على شكل جرس، كنت قد حصلت عليه من قريبة لنا في النمسا، وكان أكبر قليلًا من مقاسي، ولكن كان في الموضة تلك الأيام. عثرت أيضًا على حزام نسائي معدني للبنطلون مكون من صفائح مدورة يُسمع لها رنين عند المشي. كانت بعض الصفائح قد اعتراها الصدأ ولكن لم يؤثر ذلك على رنينها الذي لا يمكن تجاهله عند الاستعراض في الشوارع. وفي أثناء دوراني في سعادة أمام المرآة التي على واجهة التسريحة القديمة، قاطعتني أمي عندما دخلتْ إلى غرفة النوم فجأة كعاصفة وهي تشير بإصبعها السبابة لشخص ما ليدخل خلفها، ظهرت جدتي خلفها ووقفتا خلف ظهري؛ لذا شاهدتهما بسهولة في المرآة.

«انظري!» قالت أمي.

«نعم، إني أراها» ردت عليها جدتي.

وكانتا تنظران إليّ في المرآة وهما تتحدثان عني.

«هـل تريديـن أن تذهبي إلى حفـل توزيع الجوائـز وأنت بهذا اللبـاس؟» وكانت تضحك بملء فمها، وكأنها تقول إني لا أُلام على ذلك.

وبضحكات عالية النبرة قليلًا شاركتها جدتي في الضحك قائلة: «كأنك فاشينيك حقيقي!».

وهو شـيء منكَر وغير لائق؛ لأن الفاشـينيك يُقام مرة في السنة فـي فبراير أو مارس، ومن الضروري أن ينتهي إلى أربعاء الرماد. فاشـينيك تُطلَق أيضًا على السـيدات العجائز اللواتي نسـين أنهن عجائز أو أنهن لم يعدن سـيدات. وتطلق أيضًا على بعض الفتيات الشـابات اللاتي يمشين في الشـوارع في أحذية عالية بيضاء إلى نصف أفخاذهن وتنانير قصيرة بالكاد تغطي مؤخراتهن، ويجعلن على أوجههن مسـاحيق سميكة داكنة اللون كل هؤلاء يطلق عليهم للاستهزاء كلمة فاشينيك.

حفلة توزيع الجوائز حدث مهم، وهي أول جائزة سـوف أحصل عليها، وسـوف يُكتـب ذلك أو يُسـجل، وقد يحضـر الحفلَ بعضُ الأقارب الذين يعتقدون أن أبناءهم أكثر شـطارة لأنهم من الصباح في الإصطبل وليس لديهم وقت لقراءة الكتب غير المدرسية، وأنني لم أُولد لعائلة مميزة لذا مسموح عندنا بقراءة كل شيء.

حتى التمرس فـي القراءة وجلال الحفل لم يفيداني في تحقيق رغبتي في الحضور إلى الحفل في لباس ممثلة محلية.

اضطررت لخلع البنطلون والحزام المعدني الرنان وشال الربيع الحريري. أمـا حذاء الصالون البناتي ذو الحلقـات المعدنية الذي كان محفوظًا في كيس بلاسـتيكي ومخفيًّا خلف التسريحة لحفل

المناولة الأولى، فلم يُسمح لي حتى بمجرد التفكير به. بدلًا من ذلك كان ينتظرني مصيري في فستان كانت قد أهدتني إياه قريبة لنا من مدينة ماربيبور، ولم أكن أعيره ولا قريبتنا تلك أي انتباه. أكره هذه البدلة ذات البنطلون الضيق وإن كان واسعًا عليَّ في الوسط، مع الجزء العلوي الذي كان بنفس اللون ونفس الأزرار وكان بدون أكمام حتى يمكن لبس أي قميص أبيض كريه تحته. كنت أكرهُ هذه البدلة. ودائمًا كان هناك حذاءٌ ملائم لها. ولم تكن هناك حاجة إلى منديل أو حزام أو أي شيء آخر؛ لأن البدلة كانت في حد ذاتها جميلة. «مميزة » قالت عنها المدرسة ذات يوم، وكنت أنا غبية أنني أخبرت أهلي بذلك. «عبقرية» وصفتها بنت الجيران التي كانت هي نفسها تلبس تنورات الميني جيب وتضع رموشًا صناعية وأشياء أخرى غير مستحبة.

وحتى يكون الأمر كله أكثر سوءًا، كان الحفل في مدرسة أخرى، كان من المستحيل أن يضع أحد من مدرستنا رجله فيها، ولكن في هذه المرة كنا مجبرين. رافقتني أمي إلى الحفل لأن المشي مع أمي في شوارع المدينة وإن لم يكن إجباريًّا، كان ضرورة. عندما تركتني أمام المدرسة سألتُ عن صالة الحفل ثم دفعتني إلى صالة أكل عادية. كان بإمكاني أن أفعل كل ذلك بمفردي.

دخلت إلى وسط صالة الأكل في هذه المدرسة الغريبة عليَّ وتظاهرت أنني أعلم إلى أين اتجه. هنا وهناك تدلت من السقف شرائط من الورق كتبت عليها حروف كبيرة، وفي نهاياتها قطع من البلاستيك على شكل أوسمة القراءة سوداء ورمادية وصفراء. كانت رائحة البلاستيك تفوح كرائحة البول كلما فتح أحد الباب وهبَّت الريح. وخلف الطاولة الكبيرة المركبة من عديد من

الطـاولات الصغيرة ويغطيهـا فرش أحمر داكن، شـاهدت بعض الوجوه المعروفة من مدرسـتنا، ولكن لم يَبْقَ هناك كرسـي فارغ. ولكني رأيت بعض الأماكن الفارغة عن يميني بين وجوه لا أعرفها. تقدمت إليهـم وكأني قد عزمت الذهاب إلى هناك منذ البداية. وفي هذه الأثنـاء لاحظت الطاولـة الكبيرة مليئة بالأطبـاق التي تحوي أشـياء مسـتطيلة لبنية اللون وبجانبها مادة ملسـاء تقريبًا بنفس اللون، ولكن ما إن اقتربت من الطاولة حتى تبينت وجوه الجالسين والأشياء المسـتطيلة على الأطباق ذات الحواف الزرقاء، اتضح لي أن ما يجري هو حفل توزيع النقانق.

جلسـت إلى جانب تلميـذة صلفة الملامح، وقـد قالت لي بفخر إنها تنتمي إلى هذه المدرسـة، وإنها لعدة أيام ساعدت في ترتيب الصالـة. قالت لي إنه يجـب عليَّ أن آكل زوجًا مـن النقانق وليس نصف طرف منها كما كان تعبيرها. وعندما عبسـت بوجهي وقلت لهـا إنني فـي حياتي لـم آكل حتى طرفًـا واحدًا مـن النقانق إلى النهاية، هزت جارتي رأسـها في اسـتغراب ومدت يدها إلى طبقي وبدأت تأكل نقانقي. لم يكن ذلك يهمني، أما بالنسـبة لها فلم يكن الأمر كذلك، فهي قد شاركت في تزيين مدرستها للحفل.

عندما حاولت تغيير طعم اللحم بالبسطرمة بشرب الشاي البالغ الحـلاوة مـن الأكواب المعدنيـة التي أحضروها لنـا على صينيات وسخة من البلاستيك، دوَّتْ أصوات مشوهة من خلال الميكروفون الـذي كان يتبادلـه رجل وامـرأة. في تلـك اللحظة شـاهدت فتاة منمشة من أحد الصفوف الأخرى في مدرستنا، وكان لها شعر بني قصيـر، كانت صغيرة وجميلـة، أما والداها اللـذان كانا يرافقانها إلى المدرسـة في سـيارة جديدة فكانا يتكلمان معها بالسلوفينية

أنظر إليها وكأنها تعني لي كثيرًا. ومن حرج صغير إلى حرج أكبر حملتني لمسة يد على كتفي. التفتُّ خلفي فرأيت المرأة التي كانت أمام الميكروفون تقف أمامي، وكما يبدو أنها إحدى المدرسات في هذه المدرسة. مدت إليَّ يدها بكتاب ووسام القراءة الذهبي؛ لأنني لم أتقدم إلى المنصة لاستلامهما. جارتي التي كانت تمسح باقي البسطرمة ببقايا خبز ناعم ثم تضعه في فمها وتفرك يديها مسرورة، هزت رأسها في تعجب من قلة تركيزي وضعف سمعي.

ثم بعد ذلك اكتشفت أنني لا أدري كيف أغادر مكاني، لم أكن أعلم هل يمكنني أن أضع الوسام على ياقة قميصي بعد انتهاء توزيع النقانق أم لا؟ هل يمكنني أن أضع الكتاب تحت إبطي وأترك الصالة التي بدأت ترتفع درجة الحرارة والعفونة فيها؟ وفوق ذلك قد أُفسد على جارتي ضيقة الصدر والمبالغ في تربيتها يومها كله.

التفتُّ لأن هناك من ربت على كتفي، كانت ذات الشعر القصير والنمش تقف أمامي. "أريني أي كتاب كان من نصيبك؟" لم أكن قد نظرت إلى العنوان إلا الآن.. "دون كيخوت".

"أما أنا فقد حصلت على رحلات جليفر. لِنَمْشِ؟".

أومأت برأسها صوب الباب. قمت بارتياح وفرح حتى إني دفعت الكرسي فوقع على الأرض. أعتقد أنني تركت جارتي وهي تمسك برأسها من الاستغراب، ولكني كنت في عجلة من أمري لأتبع صديقتي الجديدة. عندما وصلنا خارج المدرسة أرادت أن تعرف إذا ما كان بالإمكان أن نتبادل الكتابين بعد أن تقرأ كل واحدة كتابها، وما هو اسمي!

"اسمي أنيتا، ولكن ادعيني نجيمة" أضافت بطريقة مؤدبة.

نظرت إليها في استغراب لأني لم أجد أي صلة بين الاسمين.

أشارت إلى وجهها قائلة: "بسبب النمش، حتى أهلي كلهم يدعونني نجيمة. يمكنك أن تناديني نجمة أيضًا. هل تعرفين درب التبانة؟".

"أستطيع دومًا تحديد نجوم بنات نعش الكبرى والصغرى" قلت وأنا مسرورة، فإن لم يكن لدي لقب مثلها فأنا على الأقل مشتركة في مجلة "الإنسان والفضاء" التي لم يحبها أحد.

"هذا لا شيء" ردت نجيمة وهي تضحك، "عليك أن تأتي إليَّ، عندي درب التبانة على السقف".

"أنت حتمًا تمزحين" حاولت أن أتهرب مازحة.

ولكنها ضحكت مرة أخرى. "على أحد جدران الغرفة لدي خيول بين الأشجار. حقيقة! طبعًا على ورق الجدران! وعلى الجدار الآخر رسوم كاريكاتيرية".

وقفت صامتة وأنا أحضن دون كيخوت بشدة إلى صدري مصممة على أن أتم قراءته إلى اليوم التالي حتى أستطيع مبادلته. ولم يخطر على بالي أي شيء آخر غير هذا.

"من تحبين أن ترسمي في رسم كاريكاتيري؟" أصرت نجيمة في سؤالها.

لم أكن أعرف أدنى شيء عن ما هو الكاريكاتير؛ لذا حاولت أن أحوِّل دفة الحديث إليها: "من تحبين أنت أن ترسمي؟".

"كبدايةٍ رسمتُ أخي ولكن رأسه كبير. ثم رسمت طباختنا والممثلة الإيطالية فيرنا ليسي. ولكن لا يُسمح برسم السياسيين الشيوعيين".

"لماذا لا؟".

"لأنهم هم أصلًا كاريكاتير بالفعل"، ونظرت إليَّ بتوقع في نظراتها كما يفعل الذين يشربون الخمر حول الطاولة ويقول أحدهم نكتة لطيفة. نجيمة بدأت تضحك وحدها بصوت عال. وعلى كل حال أخذت أضحك أنا أيضًا، وفي الحقيقة كنت أفكر من أيضًا يمكن أن يكون نفسه بالفعل كاريكاتيرًا.

فجأة اتجهت نحو اليمين إلى الحديقة. ومشيت معها.

"انظري، هناك بيتنا، خلف الأشجار، ذو السياج الأبيض. تعالي إليَّ غدًا وأحضري معك بجانب الكتاب الكاريكاتير أيضًا".

في بيتنا لم يكن بالإمكان التحدث لا عن درب التبانة ولا عن الممثلة فيرنا ليسي، ولا عن الكاريكاتير، وقطعًا أبدًا عن الشيوعيين. وحتى عن عائلة نجيمة لم تسمع إلا تلميحات غامضة، من بينها حتى أنهم يمشون في بيتهم عراة لأنهم "فريجاستيك" أي ذوو روح حرة.

"هممم هممم، أثرياء اليهود"، كان رأي جدتي، وهزت رأسها يمنة ويسرة كجارتي القلقة في حفل توزيع النقانق.

"يظنون أنفسهم أذكياء" قال الآخر.

"سياسيون" علق ثالث.

فـي كل الأحـوال عُرفوا بأنهم أذكيـاء، فهم فـي نهاية المطاف لديهـم طباختهم الخاصة، ولهذا فإن من المستحسـن أن أصاحب نجيمة، ولكن ذلك لم يكن من السهل.

لـم أحضـر معـي الكاريكاتير، وهو مـا لا يحتاج إلـى توضيح خـاص، فصديقتي الجديدة لديهـا دائمًا أفكار كثيـرة. انتظرتني لابسـة باروكـة أمها لونهـا أزرق فاتح، أمـا أنا فكنت سـعيدة أنه كان بإمكاني أن أتسـلل من البيت لابسـة الحـزام الحريمي. وهي قد أعجبـت بالصفائح المعدنية جدًّا حتى إنـي أهديتهن لها. وفي المرة التالية أعجبها حجر شـبه كريم اسـمه تشـيليبار إذا نظرت مـن خلاله ظهر أي شـيء تنظر إليه من خلال أسـطحه الملسـاء والمتعددة المسـتويات مضاعفًا عشـرين مرة أو أكثر. كنت أذهب إليها قبل المدرسـة كلما اسـتطعت ذلك وأعطيها وجبتي الخفيفة. أحيانًـا كانـت تدعوني إلـى غرفتها حيث كنا نسـتلقي تحت درب التبانـة. وفي بعض الأحيان تتحول نجيمة إلى فيرنا ليسـي، وكان عليَّ أن أُظهر إعجابي بها كنجمة تمثيل عالمية, أسـتلقي فوقها ثم أهمس لها أنني سأموت بدونها، وهي تشفق عليَّ وترضى أن توقِّع اسـمها على بطني العاري. أما في المدرسـة فلم تكـن تُظهر تلك الشـفقة للمعجبين بها. ولكن كنت في أي حال دائمًا بالقرب منها، حتى إن بعض البنات كن يطلق عليَّ لقب "مجنونة نجيمة"، وكان ذلـك يعجبني جدًّا، فقد كنت أعتقد أن ذلـك يمكن أن يكون عنوانًا لفيلـم إيطالـي أو أمريكي. ولذا كنت أحب الجلوس أثناء الفسـحة المدرسية على طرف المنتزه المدرسي على حجر بالقرب من غرفة تربية النباتات وأنتظر أن يدعوني أحد بهذا اللقب.

والآن يجب عليَّ أن أرسـم كاريكاتيرًا، كنت أحدث نفسي أن ذلك

كل ما يجب فعله، رسم كاريكاتيري ينال إعجاب نجيمتي لتقوم بوضعه على الحائط وهي تضحك ضحكها المجوني، وحتى يبدو لها أن صداقتي لا تقدر بثمن، وقد تقترح أن نتمشى عاريتين في داخل البيت. كانت لها رسومات معلقة على جدارها، وهي تعتقد أن هذه الرسومات ناجحة. وفي إحدى هذه الرسومات ليس إلا شعر كثيف أشقر على سرير أحمر، فيرنا ليسي. وفي رسم آخر طباختهم برأس كبير، وهي في الحقيقة مغرفة الطبخ الكبيرة، وعلى الرسم الثالث عينان وفم فقط، وهو رسم كاريكاتيري لأخيها ذي الرأس الكبير.

في تلك السنة أحببت بعد سنوات طويلة أن ألبس ثياب التنكر. على الرغم من أنه في عائلتنا لم يكن هناك كوميديون بالمجان، إلى الآن لم يحب أحد أن يظهر على شكل بهلوان. وبما أنه استولت عليَّ رغبة جامحة في أن أستهزئ بنفسي على شكل بهلوان؛ أذعنت أمي وجدتي إلى رغبتي ووعدتا بمساعدتي في الإعداد للتنكر. ولكن لم أعد أحب أن أكون امرأة غجرية بطفلها في صرة تحملها، ولا طباخة بلباس أبيض، أما أكثر ما أكره أن أكونه فهو أحد رعاة البقر بمسدس من البلاستيك. ومنذ أن تعرفت في تلك الحفلة المهيبة التي حضرت فيها لأول مرة في حياتي على صديقتي التي يحسدني عليها الكل، لا أستطيع إلَّا أن أكون إبداعية في كل شيء. لا بد أن يكون لباس التنكر شيئًا له علاقة بحرية الفكر.

وهكذا ذهبت أمي وجدتي إلى الجيران لمعرفة كيف كانت تلبس ابنتهم في حفلة التنكر السنة الماضية، وأحضرتا حتى صورة لها وهي في لباس التنكر الذي حصلت به على الجائزة الثالثة. الجائزة الثالثة ليست بداية سيئة. أمي وجدتي جلبتا معهما كيسًا به ملابس

التنكـر وأدواته. وعندما سـألتهما في اسـتغراب: أي ملابس تنكر هذه؟ ردتا بأنها ملابس رائعة.

وفي الطريق إلى المدرسـة كنت أكرر في نفسي: ماذا سأقول؟ وكيف سأشكر أسرتي باحترام عندما أحصل على الجائزة؟ سوف أرضى حتى بالجائز الثانية فقط إذا كانت الجائزة الأولى من نصيب نجيمة. يقال إن مدرسة الكيمياء التي، ولسبب غير معروف، لديها حس خاص بملابس التنكر تعتاد أن تسأل التلاميذ الذين يحصلون علـى الجوائز لماذا اختـاروا هذا اللباس أو هذه الشـخصية، وأين حصلوا على المواد لصنع هذا اللباس الظريف، ومن سـاعدهم في ذلـك، وهل يتخيلون أنهـم يمكن أن يكونوا فـي الحقيقة خبازين، بحارة، رعاة بقر، سـحرة، أو قططًا، أو أي شيء اختاروه ليتنكروا به. لو فزت بالجائزة سـوف أقرأ لهم شـيئًا أيضًا، فإنني وفي هذه السـن الصغيرة فزت بالوسـام الذهبي للقراءة، ويمكنهم أيضًا أن يلتقطوا صورة لي.

كنـت أتسـاءل وأود أن أعـرف في أي شـخصية سـوف تتنكر نجيمة، وكان أول همي أن أبحث عنها بالتحديد حتى نتمشـى معًا بيـن المتنكرين الذين يتنكرون في ملابـس وأقنعة أقل طرافة من ملابسـنا. وعلى غيـر المتوقع أخذ كل المتنكريـن في حفلة التنكر المدرسـية يهتمون بي، حتى إني نسيت البحث عن صديقتي. أول ما دخلت البهو الواسـع في المدرسة الذي يؤدي إلى صالة الطعام حيث سـتقام حفلـة التنكر، كانت هنـاك تلميذتـان متنكرتان في شـخصية "جنان ذات الجوارب الطويلـة" (وإحداهما كانت بدون الضفيرتيـن المميزتين) نظرتا إليَّ في رعـب وصاحتا: "ياللهول! انظـري هذا"، ولأنهما لم تكونا تعرفان مـن يختفي تحت اللباس؛

لم تجـرؤا على الضحك بصـوت مرتفع. ولكن اسـتغرابهما جذب انتبـاه زميل كان يمثل دائمًا لاعب كرة قدم يوغسـلافيًّا ولكن فقط بالقميـص الـذي يحمل رقمًا معينًا والكرة التـي كان دومًا يحملها تحـت إبطه. لاعب كرة القـدم نظر إليَّ باسـتغراب، رفع كتفيه ثم صرخ كالغراب قائلًا: "حقيقة. ما هذا؟".

وبـرأس مرتفع بسـبب القنـاع المصنوع من القماش القاسـي الأسود، مشـيت إلى الأمام نحو صالة الطعام، أفكر بشجاعة حول المصاعـب التي يواجههـا كل من يكون إبداعيًّـا. حاولت الاختلاط بيـن مجموعة المتنكرين في الصالة، والذين قد حصل أغلبهم على أرقام مكتوبة على قطع من الورق المقوى حتى ينافسوا للحصول علـى الجوائز. لـم أكن على عجلة من أمـري للحصول على رقمي. وبينمـا أحاول تعديل التنـورة المصنوعة من القش، والتي ربطتها بقوة أمي وجدتي حول خصري بحبل بعد أن صنعتاها من القش. نظـرت حولـي لأرى من الذي يـوزع الأرقام. في ركـن من الصالة تقـوم إحدى التلميذات الكبيرات، وهي الوحيدة التي لا تلبس ثياب التنكـر؛ لأنهـا تظن أنها قد كبـرت عن فعل ذلك، ولـذا فهي توزع الأرقام على المتنكرين. تقدمت إليها ومددت يدي لاستلام الرقم.

سـألتني: "ألا تشـعرين بالحرارة في لباس التنكـر هذا؟". من الواضـح أنها كانت تريـد أن أجيبها فتعرفني مـن صوتي. هززت رأسـي يمنة ويسـرة علامة النفـي. في تلك اللحظـة مرت بجانبي سندريلا ثم حدقت في وجهي وبسوء أدب أشارت إليه سائلة: "وما هذا الذي تضعينه في أنفك؟".

"قرط، ألا ترين؟" أجبت عليها.

"آها، أنت إذن ثور أسود أم ماذا؟".

سندريلا وموزعة الأرقام انفجرتا ضاحكتين. عيناي أبرقتا بغضب من خلال فتحات القناع الأسود.

"فليكن، أعطي هذا الثور الأسود رقمًا" قالت سندريلا شامتة.

رددت عليها: "أما أنت فعليك الهلاك".

فصرخت من الغضب خلفي قائلة: "وأنت ماذا تفكرين أساسًا؟ لا يمكنك أن تدخلي المسابقة إن لم نعلم أي شخصية أنت!".

أسرعتُ إلى ركن مظلم من الصالة حتى لا تخرب سندريلا فرصتي في الفوز. كمنت لفترة من الزمن في الركن المظلم، ولم يكن ذلك صعبًا فإن كل شيء على جسمي كان أسود حتى الصدرية الضيقة والسراويل. فكرت على الرغم مني أن قد تكون التنورة المصنوعة من القش صُنعت على عجل.

مدرسة الكيمياء تقدمت إلى الميكروفون ودعتنا إلى المشي في دائرة. أعضاء لجنة التحكيم كانوا يدورون حولنا ويسألون عن أرقامنا. لم يسألني أحد أن أريه رقمي. من الممكن أن الكل قد حفظ رقمي. لم نعثر في بيتنا على الباروكة ذات الشعر المفلفل، ولكن اعتقدت أن القناع الأسود سيكفي. وفجأة من الجانب الآخر وعكس اتجاه دورانا جاءت أميرة في ثياب بيضاء وبصحبتها بهلوان. أردتُ أن أمرَّ بجانبهما، من الممكن أني كنت جلفة قليلًا لأنهما لم يتبعا نظام الحركة، ولكنهما لم يتركاني أمرّ.

"قولي! ماذا تمثلين أنت؟ ومن أنت أصلًا؟" أصرت الأميرة المتكبرة التي كانت تفوح منها رائحة عطر ثمين لم يكن من أنواع

العطور الرخيصة.

أمـا البهلوان فكان يضع قبعة غير مسـتوية، ومن تحتها يظهر شـعر اصطناعي أحمر، وكان وجهـه أبيض تمامًا، بفم كبير أحمر يصنـع ابتسـامة دائمة ويصل مـن الأذن إلـى الأذن، ودمعة تحت العيـن اليسـرى. وكان يلبس جاكت يصـل إلى ركبتيـه وبنطلونًا طويـلًا ملفوفًـا عند الكعبين فـوق حذاء طويل متهـرئ له مقدمة مدببـة ومعقوفة إلـى أعلى. كان بهلوانًا رائعًـا، ولكن كان يضحك بخبث، وكما يبدو أنه قد تمرن على الخبث تمامًا.

"انظـري، انظـري. هذه هـي التي تلبـس تنـورة ممزقة حول خصرها!". قالت إحدى الأختين التوأمين اللتين كانتا دومًا تتنكران في شـخصية توأميـن سـياميين ملتحمتين عند المؤخـرة، وكانتا تدوران بحيث تمشي إحداهما إلى الوراء، وكان لهما رقم واحد.

أحسسـت بالحرارة وأن قلبي يدق وكأني جريت عشـرين دورة حـول الملعب في حصـة الرياضـة، أو بالأحرى مثلمـا دق عندما اقترب مني مرة في الشارع كلب شارد مكشرًا عن أنيابه.

"هذا هو الثور الأسود!" صرخت سندريلا، وعندها أخذت أخرى متنكرة كنمرة تقهقه بصوت عال.

كنـت مسـتعدة لأن أعترف بأني ثور أسـود أو أي شـيء، فقط ليتركوني أمشي بحرية في الدائرة.

وسـأرضى حتى بالجائـزة الثالثة، وقلبت قطعـة الكرتون التي عليها الرقم حتى لا يراه أحد، والذي أصبح كما يبدو مثيرًا للاهتمام.

"أرينـا رقمك!" قالت لي الأميرة المتكبرة. "حتى نعطيك جائزة

لأنك تمثلين لا شيء".

حضنت قطعة الكرتون بقوة إلى صدري وحاولت دسها في التنورة. في تلك اللحظة سقط عليَّ رذاذ قوي. لم أستطع أن التقط أنفاسي إلا بصعوبة من الخوف والمفاجأة، ولكن عندها جاء الرذاذ في فمي تمامًا وفي عيني اليسرى. ضخة الماء كانت تُرش بقوة من زهرة كبيرة في فتحة أزرار البهلوان.

"أنا أعرف ما هذا!" صاح البهلوان، وببلاهة كان يضغط على مضخة دفع الماء التي يخفيها في جيبه الأيسر. "هذا هو فاشينيك!".

كرهت لباسه التنكري المتقن والذين معه وساعدوه في ذلك. وعندما حاولتُ أن أحمي عيني بقطعة الكرتون من الرش المهين من الزهرة، انتزعها مني. وبعيدًا كنت أرى باب الصالة وبجانبه مدرسة الكيمياء، مشيت في ذلك الاتجاه وكأني في حلم.

"فاشينيك! فاشينيك للتنكر!" كلمات سمعتها تتردد خلفي وأنا أخرج من بناء المدرسة، وجدت النجاة في عتمة الشفق. جريت بقدر ما أستطيع، وسريعًا لم يَبْقَ خلف طيفي الأسود أي أثر.

في بيتنا قلت لهم إنني لم أنتظر توزيع الجوائز لأنني لا أريد الجائزة. ورغم أن لباسي وقناعي التنكري كان مقنعًا جدًا كما كانت تعتقد أمي وجدتي، ورغم ذلك لم أرد الحصول على الجائزة.

وقفت بعد الظهر أمام المرآة. في هذه السنة حضرتُ الكثير من توزيع الجوائز. ودون كيخوت يجب أن يعود إلى بيته. عندما رفعت الفانيلا الداخلية وتحسست الخدش الذي بقي من توقيع

فيرنا ليسي، جاءت أمي لتقول لي إن هناك من ينتظرني على عتبة البـاب. جريت إلى الخارج، ثم وكأن شـيئًا دفعني إلى البيت ثانية عندما وقع نظري على نجيمة. أغضبني عندما اكتشفت أنني أخجل من درجة السلم المكسورة أمام عتبة بيتنا.

"أهلًا، جئت لزيارتك، إذا كان ممكنًا" قالت نجيمة.

"أهلًا، أنيتا. لماذا جئت؟" رددت عليها ببرود.

فـي تلك اللحظة لاحظت أنها تلبس باروكة فيرنا ليسـي الزرقاء الفاتحة. وهذا بدون شـك شيء موجه لي فقط. ولكن لم أترك ذلك يربكني.

"لماذا أنت تلبسـين هكذا؟ فاليوم الأربعـاء بعد انتهاء التنكر". قلت لها بجفوة، ولكن صوتي المرتجف خفف من قسوة نبرتي.

كانت نجيمة تحمـل في يدها قطعة كرتون. وببطء أدارته: كان عليه رقم 4. رقمي. في تلك اللحظة خطر على بالي أنه لا يمكن إلا أن تكون نجيمة هي البهلـوان المتقن تمامًا. لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟

أحسست بتورد خدي من الغضب، ولكن بسبب الارتباك الشديد لم أستطع قول شيء.

"شكرًا على الكاريكاتير" قالت نجيمة.

"أي كاريكاتير تعنين؟" سألتها بحذر وملت بجسمي إلى الوراء وكأنـي توقعت رشـة ماء قوية مـن الزهرة البلاسـتيكية للبهلوان الشرير.

"تلك بالأمس" ردت على بحذر، "أنت تعرفين أنه عندما تكون فاشينيك في يوم الفاشينيك (التنكر) فذلك كاريكاتير فعلًا".

جلست على الدَّرَج. لم أُرِدْ أن أدعوها إلى الداخل بعد. أحببت أن أحتفظ بهذه اللحظة. جلست نجيمة إلى جانبي. لم أجلس صامتة مع أحد قبل ذلك في حياتي.

عندما أحسسنا بالبرد في مؤخرتينا قمت وأشرت إليها أن ترافقني إلى داخل البيت.

"فيرنا ليسي تعرف مكانًا جديدًا فيك حيث يمكنها أن تضع توقيعها". سمعتها تقول من خلفي.

رنداشي أو المستأجرون

كنت أذهب مع جدتي إلى متجر في الطابق الأرضي من بيت كبير ذي طوابق. يعتبر البيت ذو الطوابق، أي الذي به مساكن على مستويين تبذيرًا وعظمة هائلة. هذا البيت الذي كنا نزوره بانتظام حتى في طريقنا إلى الكنيسة، كان يحوي إلى جانب المتجر شيئًا آخر يزيد عن احتياجات ساكنيها وهو: المستأجرون.

«شش، المستأجرين!»، كانت جدتي تحذرني بجر كُمّي إذا رأت أحدًا من الأسر المستأجرة في فناء البيت، قبل أن أشير إليهم بإصبعي وأهمس: «انظري، إنهم المستأجرون»، وذلك يعني أنه لا يجوز النظر إليهم. لأن ذلك طبعًا ليس مستحسنًا. وبالأخص لأن النظر إليهم لم يكن أبدًا مريحًا. كانوا عادة أسرة فقيرة: أبوان فقيران وأبناؤهما الثلاثة الذين لا يقلون عنهم فقرًا. كانوا يعيشون في الغالب من الدعم الخيري. وفي أغلب أوقاتهم كان يجلسون في مساكنهم. حتى الكنيسة كانوا لا يزورنها إلا قليلًا. «إنهم لا يستطيعون الصلاة؛ لبلادتهم»، همستْ لجدتي ذات يوم مالكة البيت والمتجر والمستأجرين المعروفة لدى الجميع باسم السيدة باوتا.

«لمـاذا يصلـي الفقير ويقـف في طابـور أمام الـرب؟» ردت عليهـا جدتي وهي تـدس كيلوجرام من أفخاذ الدجاج في سـلتها المصنوعـة من الخـوص، حتى لا يرى أحد في الشـارع ماذا نأكل في بيتنا. «ليس هناك فائدة من صلاة المسـكين فإن الرب لم يعطِ أحدًا مسكنًا».

عندمـا تكون جدتي صافيـة المزاج أو يكون لديهـا ما تتحدث عنه مع السـيدة باوتا عـن الإجهاض والسـكارى الخفيين، أو عن العمليـات القيصرية، أو عن الخيانة الزوجية، يُسـمح لي أن أذهب إلى يوديتا صغرى بنات المسـتأجرين، التي كانت، بسـبب بعض التعقيدات المرتبطة بانتقالاتهم المتعددة، للمرة الثانية في الصف الثالـث رغم أنها لا تبدو بليـدة، الأمر الذي لا يهتم به أحد. في ذلك اليـوم أدارت يوديتا المزلاج الثقيل لبـاب المدخل الخلفي ودعتني للدخول في بيتها المسـتأجر، حيث لا يجب خلع الحذاء على الرغم من نظافته. لم يحدث أن دخلت مسكنهم من قبل، فإن ذلك لم يكن يخطر لي على بال. والآن حانت لي الفرصة أن أرى كيف يتنفسون هواء مسـتأجرًا وينامون على أسـرة مسـتأجرة ويعيشون أيامهم المسـتأجرة المملة في ذاتها والتي لها ثمنها. ولكن النظر إليهم لم يكن كافيًا. كان كل شيء مرتبًا وكأنهم أتوا البارحة إلى سكن فارغ أو كأنهم سـينتقلون في الغد. والد يوديتا كان جالسًا يقرأ صحيفة فـي المطبخ، وكان يفعـل ذلك واقفًا في فنـاء البيت، فليس لديهم حديقتهم الخاصة التي بإمكانهم الجلوس بها دونما سـبب. وحتى هـذه المرة كان يقرأ عددًا قديمًا مـن الصحيفة قد مرت عليه أيام، وكانت السيدة باوتا قد ألقت به بين كومة الورق القديم على الدرج الخارجي. وكما كانوا يقرءون الصحف القديمة كانوا يأكلون بقايا

الطعام الذي يفسد بسرعة، هكذا كان يقال، والذي تبيعه لهم السيدة باوتا بسعر زهيد. وبينما كنت أنا ويوديتا جالستين على الكنبة، كانت أم يوديتا تتمشى في الشقة حاملة المكنسة، مع أنه لم يكن هناك ما تكنسه. ثم ودون أن تتكلم أحضرت لي مشروب فليفراید باللون الوردي. وعندما قربت الكأس من فمي سمعت صوت جدتي آتيًا من الخارج أنه يجب الذهاب إلى بيتنا. وضعت الكأس مكانها وجريت إلى الخارج دون أن أودع أحدًا. يوديتا بقيت جالسة على الكنبة، لوحت لي بيدها بالوداع وأمالت كأسها من الفليفراید. لم تكن كالبنات الأخريات: لم تكن لتعبس بوجهها الممل، ولا تتوسل إلى صديقاتها أن يبقين معها قليلًا. حتى هي ربما لم تكن تريد البقاء هناك حيث تعيش. وإلى جانب ذلك فإن الناس كانوا كثيرًا ما يترددون على المتجر في الجانب الآخر لبيتها المستأجر، ودومًا يتطوع أحد الأطفال أن يتحمل صحبتها لبعض دقائق بينما والداه يقومان بشراء احتياجاتهم. لحظات معدودة من الصحبة تعتبر شيئًا كثيرًا عند المستأجرين؛ لأنهم ليس عندهم حيث يعيشون جد ولا جدة ولا عم ولا عمة ولا أحد من أقارب الأب أو الأم. كما يظهر أنه لا يزورهم أحد.

ولكن كلهم كان لديهم شيء ما.

«كل المستأجرين لديهم (أوني)[5] خاص بهم»، كانت جدتي تقول أحيانًا في سرية وبمغزى، وخصوصًا عندما تعود من المتجر وهي تضع على الطاولة ما أحضرته في سلتها: لبن، خل، زيت، مياه معدنية، شرائح اللحم، قهوة القمح، وأشياء أخرى لا تنبت في

5- كلمة عامية خاصة بالمنطقة التي تجري فيها أحداث القصة. وهي تعني: شيء ما مبهم. ويمكن ترجمتها بالكلمة العامية المصرية «البتاع».

حديقتنا.

«أي (أوني/بتاع) عندهم يا جدتي؟».

لكنها لم تجبني عن ذلك أبدًا. وعندما كان الكبار يتحدثون عن (الأوني/البتاع) هذا لم أستطع أن أشاركهم في الحديث.

ولكن مع الوقت فككت معنى (أوني/بتاع) المستأجرين هذا بعد أن كان عندنا مستأجر يدعى بيشتيك لسنة أو سنتين. كان واضحًا لي تماما أن بيشتيك يشبه غالب المستأجرين: لم يزره أحد، لم يكن عنده زوجة ولا أولاد ولا أبوان. كان يستيقظ باكرًا في الصباح ويذهب إلى عمله، وفي الليل يأتي لينام دونما صوت. لم يكن يُسمع من غرفته صوت ولا حتى صوت نفس، فما بالك بصرخة.

إنها الحقيقة: كل المستأجرين لديهم شيئهم المميز (أوني/بتاع). العائلة الفقيرة المستأجرة لدى السيدة باوتا كان المتجر أمامهم ولكنهم لم يكونوا يحتاجون إليه قبل المساء عندما تعزل السيدة البضائع سريعة الفساد. كان لبيشتيك شيئه المميز وهو حفر في خديه. عندما يخرج من غرفته الهادئة والمعتمة دائمًا، فهو غالبًا ما يأتي فقط لينام فيها، يلقي التحية ويضحك بصوت عال حتى تظهر في خديه حفر. عندما كان يستعد للذهاب إلى العمل يرفعني على الأريكة لأقفز عاليًا في الهواء حتى يرتفع الغبار من المرتبة، وفي النهاية كنت أشهق من الضحك. أما بيشتيك فكان أكثر ما يضحك عندما كنا نحن أيضًا نضحك.

«إنه ليس لديه ما يقلقه. لماذا لا يضحك؟» سمعت جدتي مرة تقول، «لا أبوان ولا أطفال ولا زوجة ولا بيت خاص به ولا حياة

خاصة به. حر كالعصفور. لماذا لا يضحك؟!».

هزت أمي رأسها موافقة وهي كالغائبة. بعد ذلك رأيتها عدة مرات كيف تنظر وهي غارقة في تفكير عميق إلى المستأجر بيشتيك وهو يغادر في الأمسيات الحارة الخانقة يصفر جذلًا ويلبس قميصًا أبيض نظيفًا ويمشي متأرجحًا نحو الشارع الرئيسي الذي نأخذه عادة إلى المدينة لشراء الجيلاتي.

«إنه كالطائر حقًا» قالت أمي وهي لا زالت غارقة في تفكيرها وهي تنظر خلفه إلى ظهره الذي تحول في تلك الأثناء إلى مربع أبيض يتراءى في نهاية شارعنا.

مارينكا، وهي كباقي المستأجرين، تسكن في آخر طابق تحت السطح في منزل يقع على الشارع المجاور. كانت أكبر المستأجرين الذين عرفتهم في حياتي، كان مؤجروها ينتمون لدين آخر غير الكنيسة الكاثوليكية التي هي الصحيحة فقط. (الأوني/ البتاع) المميز الخاص بمارينكا هو دراجتها.

على الدراجة تجلس امرأة طويلة نحيفة وإن كانت كافرة، تجلس على الكرسي العالي مستقيمة الظهر، وكانت تنظر أمامها في فخر واعتزاز دون أن تنظر ولا مرة واحدة إلى رجليها الطويلتين اللتين تدوسان دونما تعب على الدواسات.

«أف، هذه السرعوفة!» قالت جدتي عندما مرت مارينكا على دراجتها في شارعنا. وعندما حصلت أخيرًا على صورة حشرة السرعوفة مع الشيكولاتة وألصقتها بألبوم صور مملكة الحيوان، بدا لي أن مارينكا حقيقة تشبه السرعوفة، بالطبع إذا نظرت إليها

على دراجتها.

«إنهـا مسـتقيمة كالشـمعة» قالت أمـي وهي تنظـر من خلال النافذة إلى مارينـكا الفارعة، إلى أن اختفت صورتها خلف صوت سلسلة دراجتها الطويلة الذي يتلاشى وهي تبتعد.

كنـت أتردد لزيارة مارينكا، فهي بطولها الفارع وحبها للترتيب تسـتطيع أن تمـلأ الغرفة المسـتأجرة حتى إنك تضطـر إلى خلع الحـذاء عنـد البـاب. وفي ركـن بجانـب الشـباك كان لديها موقد بعيـن واحدة، وكانت عليه تطبخ شـوربة الخضار حتى إن الطابق العلوي كله يصبح مفعمًا برائحة توابلها وأعشابها التي لم أستطع أن أنطق اسـمها. كانت مارينكا تفسـر الرائحـة العطرة التي تملأ غرفتها وجسـمها بأن مصدرها نبتة شـديدة الخضرة تتسلق على الجدار من أصيص يقع بالقرب من تمثال غير كاثوليكي للمسـيح على الصليب.

«ومـا هي هذه النبتة الخضراء العطرية؟» كنت كل مرة أسـألها بأدب وبصوت خافت عندما آكل شوربة الخضار التي تطبخها.

كنـا وكأننا في فيلم نمسـاوي، يظهر فيه الأشـخاص لطيفين، نظيفيـن، دائمًا مبتسـمين ويجلسـون إلـى المائدة فـي المطبخ: امرأتـان، واحـدة دائمًا سـوداء الشـعر، والأخرى شـقراء الشـعر وتتكلمان عـن ماذا، تتكلمان عـن النباتات العطريـة، وعن عجين الجدة، وعن مسامير القرنفل.

«أنسـيت مرة أخرى، أم ماذا؟» سـألتني مارينـكا، «إن هذه هي

نبتة ...حان[6]!».

شوربة محاطة براحة الـ...حان أفضل شيء أحبه على طبقي إلى جانب خبز الشيلم[7]؛ لذا كنت مصابة بفقر الدم، الأمر الذي لم يكن مروعًا، فكل من أعرفه تقريبًا مصاب بفقر الدم. وأيضا مستأجرنا بيشتيك كان مصابًا بفقر الدم، ويوديتا من العائلة المستأجرة لدى السيدة باوتا كانت أيضًا مصابة بذلك. لم يكن في المدينة إلا مستأجر واحد غير مصاب بفقر الدم، وهو الدالماسي[8] الذي كان يسكن في البدروم لقريبتنا البعيدة المعروفة بعرافة الضواحي، والتي كانت تقرأ الطالع من القهوة ومن ورق اللعب. وهذا الدالماسي أيضًا لم يكن لديه زوجة أو أقارب، وحتى اللهجة المحلية لم يتقنها ولكن كان «يلقي الكلمات على الفارغ» كما تقول جدتي. كان يعيش في البدروم في غرفة ضيقة لا يستطيع أحد دخولها بعده، ولم يستطع أن يأتي بأي امرأة. قالت العمة العرافة لجدتي ذات يوم: «أي امرأة تقصدين؟ هذا يميل إلى الرجال». في السرداب البارد أمام غرفته كانت هناك براميل كبيرة، وعلى الجدار قائمة بالأسعار لمختلف المقادير. إن الشيء المميز للدالماسي هو الخمر الأسود؛ أقوى خمر على الساحل، مليء بالحديد؛ لذا فإنه يشفي فقر الدم أفضل من قراءة الطالع عند العمة العرافة. كانت أمي تأخذني كل أسبوع لأتناول مقدارًا صغيرًا منه، صغيرًا جدًّا حتى إنه لا يجب دفع ثمنه. كان الدالماسي واقفًا بجانب براميله الكبيرة. ناولني بفخر جرعة دواء من خمره الأسود. وعندما تجرعت

6- تنطق مارينكا كلمة الريحان. وهو عشب عطري. بطريقة مبهمة أو سريعة فينضح منها المقطع الأخير فقط.

7- أحد أنواع الحبوب يصنع منه الخبز ويسمى أيضًا الجودار.

8- نسبة إلى «الماسيا» وهي مقاطعة جنوب غرب كرواتيا على الساحل.

الكأس الصغيرة مرة واحدة لمعت عيناه السوداوان وشعره الأسود اللامع.

«أسـود كدهان الأحذية» قالت لي أمي في طريقنا إلى البيت بعد أن شربت شيئًا من الخمر الأسود هي أيضًا تحسبًا لكل الاحتمالات. لم تلاحظ سـيارة أبي خلف ظهرها، أما أنـا فاني كنت ألوح بيدي لأبـي، ولكنه لم ينتبه لي، فقد كان مسـتغرقًا فـي حديث مع امرأة معـه. مرت السـيارة بجانبنا في اللحظة التي بـدأت فيها المعركة الأسبوعية ضد فقر الدم.

وذات يوم كان حوش السـيدة باوتـا فارغًا. أحببت أن أعرف إذا كانـت عائلة يوديتا قد رحلت، ولكن جدتي سـحبتني من يدي إلى المتجر بسبب الأمطار.

«ليس لديكم مسـتأجرون الآن أم ماذا؟» سألت جدتي بينما هي تقرأ قائمة المشتريات.

«لا» قالت السيدة باوتا.

«تبقَّى أن تعطيني ثلاثمائة جرام من محشي السلامي المجفف» قالت لها جدتي وطوت الورقة التي تحمل قائمة المشتريات.

«سـتكون جاهزة. تحصـل الرجل قبل ثلاثة أيـام على عمل في منطقة ميجوموريا وهكذا ذهبوا. ماذا يربطهم؟ لا شيء. هل أقطع لك هذا القدر؟».

هزت جدتي رأسـها بالإيجاب وهوت اليد الضخمة على محشـي السلامي بالسكين.

«من المستحسن أنهم ذهبوا حتى لا يتعودوا كثيرًا. ودائمًا يأتي غيرهم».

لفَّتْ السيد باوتا قطعة المحشي في ورق له حفيف، وبأصابعها المغطاة بالدهن طبعت الثمن على آلة الصرف ولمعت عيناها بخبث.

وفي طريق عودتنا إلى البيت كان علينا الوقوف أمام حاجز السكة الحديدية. كان قطار الشحن يجري سريعًا أمامنا جيئة وذهابًا وهو يهدر. كنت أنظر من خلال عجلات القطار المسرع وأحاول أن أتبين ما يجري على الجانب الآخر للسكة. لمحت طفلة من عائلة مستأجرين أمام فيلا خضراء اللون قد نخرها الزمن وكانت فارغة لسنوات عديدة. كانت الطفلة تقف مقطبة الحاجبين في فناء الآخرين أمام شريط من المطاط لا يمتد أكثر من متر ونصف. وللوهلة الأولى حسبت أنها يوديتا ولكنها لم تكن تشبهها على أي حال. كانت هناك امرأة، قد تكون أمها، اعتادت أن تطل مرات عديدة من شباك الطابق السطحي وتلقي نظرة على الصبية التي لم تكن تظهر رغبة في النط على الشريط المطاطي، أو أنها قد استغرقت في التفكير فقط، لأن ملامح وجهها كانت متوترة وكأنها تحاول أن تكبح نفسها. ما هو يا ترى «الأوني/البتاع» الذي تحتفظ به الأم وابنتها؟ الأم المستأجرة بلا شك لديها هذه الطفلة، ولكن ماذا تخفي هذه الطفلة؟ بدا لي وكأنها تقبض بعصبية على شيء في يدها، ولكن في تلك اللحظة مر القطار بعرباته بسرعة. وهو يمر أمام الحاجز حجب النظر عن فناء الفيلا.

في تلك اللحظة لمحت أبي في سيارة أمام عارضة الحاجز.

وبجانبه كانت تجلس نفس المرأة، ولكن هذه المرة لم يكونا يتحدثان، ولكنهما كانا مطأطئين رأسيهما وينظران إلى الجهة الأخرى وكأنهما دميتان في واجهة معرض تجاري. عندما بدأت عارضة الحاجز في الارتفاع ببطء وضعتني جدتي في عجلة بجانب عمود علامة المرور (تقاطع الطريق مع سكة الحديد) قائلة أن أتمسك به بقوة وأنتظرها هناك. أقفلت مظلة قديمة في يدها ثم رفعتها عاليًا وأسرعت نحو عارضة الحاجز وهوت بالمظلة بكل قوتها على الزجاج الأمامي لسيارة أبي. داس أبي على دواسة البنزين ليتجنب أمه وساق سيارته تحت العارضة تمامًا التي اصطدمت بسقف السيارة في دوي مكتوم غطى على ضربات المظلة على الزجاج الجانبي للسيارة. عندما هوت جدتي للمرة الأخيرة بالمظلة التي برزت قضبانها المكسرة، كانت السيارة قد تحركت وهوت ضربتها في الهواء فسقطت على ركبتيها. ارتفعت أبواق السيارات خلفها وخرج بعض السائقين من سياراتهم وعلى وجوههم علامات عدم الرضا والقلق، أما أنا فلم أستطع أن أترك مكاني، ولكنني فضلت التفكير في الأعشاب العطرة وحشوة الجبن التي تصنعها عمتي، والشوربة المركزة، ورءوس الثوم المنظومة بنسق جميل على شكل إكليل معلقة على جدار أحد المطابخ في ضاحية المدينة.

في ذلك اليوم ألغيت جرعة الخمر الدالماسي المعتادة. كانت أمي طيلة اليوم تنظف الحديقة من النباتات الضارة ولم ترفع رأسها عن التربة قط، حتى عندما أرسلتني إلى مارينكا لأتناول شوربة الخضار. ذلك اليوم داعبت مضيّفتي بشدة بأفعى صغيرة من المطاط أعارني إياها بيشتيك بصعوبة بالغة. كنت أرميها على

الطاولـة أو بين رجليها فتصرخ قافـزة عاليًا وأنا كنت أضحك في شـهيق أتنفس من خلاله روائح عشـبة الـ...ـحان الذي كان يملأ غرفتها الجميلة.

المسـتأجر الذي يسـكن معنا بيشـتيك كان يصفـر وهو يحزم ممتلكاتـه القليلة. سـمعته وهـو يقول لجدتي إنه ليـس من الفأل الحسن أن يبقى المستأجر في البيت عندما يترك رجل البيت بيته. أهداني بيشـتيك الأفعى المطاطية ولكني وعدته بألّا أضايق مارينا بعد ذلك. وحقيقة لم أزعجها بها أبدًا.

فإننـي تركـت البيت أنـا وأمي بعد فتـرة قصيرة مـن مغادرة بيشـتيك. ومنـذ أن ترك أبي البيـت، فهو بعد الحادثـة عند حاجز السـكة الحديدية لم يعد إلى البيت أبـدًا، لذا أصبح حقنا في البقاء فـي البيت ضعيفًـا. انتقلت أنا وأمي إلى غرفـة بالإيجار تقع تحت سطح بيت أخضر اللون تحيط به حديقة كبيرة لم أجلس فيها قَطّ.

أمـي ذهبت إلـى العمل. الآن عندما لا يكـون أصحاب البيت هنا أربط شـريطًا مطاطيًا مشـدودًا أمام جراج سـيارتهم للنط عليه، ولكن علو الشـريط وعرضه لم يكن أبدًا صحيحًا. في يدي أمسـك أفعى بيشـتيك بعصبية، فليس لدي شخص أرميها على رأسه بكل سرور. ولكن هذه الأفعى اللعبة ليس «ألأوني/البتاع» الخاص بي. إن الشـيء الذي يميزني هو الحديد في دمي، والذي يجعلني صلبة وقاسية.

ثم أقف وأنظر إلى الشارع ولا أدري ما يمكنني أن أفعل.

مملكة الحيوان

علـى عتبة البـاب تقف فتاة طويلـة القامة بخصلـة طويلة من الشـعر البني. كان المعطف الذي تلبسه جديدًا ويبدو علي جسمها الرشـيق أكبر مـن حجمها ثلاث مـرات، وكأنها حصلـت عليه من الصليب الأحمر.

«ألا تذكرينني؟» ابتسـمت الفتاة للطفل ذي السـنوات الخمس الذي فتح لها الباب.

كان آخر مرة رأى فيها الطفل قريبته البعيدة القادمة من القرية في الصيف قبل أربعة أشهر عندما أرادت أن تقضي بعض الأسابيع في المدينة.

«أتذكرك». رد الطفل في حزم، «ولكن لماذا جئت الآن؟».

«بالتأكيد لا لأستعير قليلًا من الملح».

أبعـدت الفتـاة الطفـل بلطف لأنـه وقف علـى العتبـة كتمثال خشبي للعذراء في معبد قروي، ثم دخلت إلى البيت. ألقت بحقيبة السـفر في المطبخ بتنهيدة ارتياح ثم جلسـت. صحيح أنها بليدة كما يحلو لسـكان المدن أن يطلقوا علـى أقربائهم القرويين ذوي

القامات الطويلة، ولكنها كانت تحب أن تتمشى خارج البيت، في الطبيعة، وكانت دائمًا وبكل سرور تأخذ الطفل الذي أصبح عمره ست سنوات إلى المقبرة المهجورة التي تقع في نهاية الشارع، وكانت تريه كيف يقف مقلوبًا على اليدين، أو يمد جسمه على شكل جسر، وكيف يتشقلب إلى الأمام. وفي الإجازة الصيفية احتفلت بعيد ميلادها الخامس عشر. في ذلك اليوم حصلت على بعض السجاير من أحد الفتيان ثم اصطحبت الطفل إلى المقبرة، واختفت خلف إحدى الشواهد الكبيرة ثم أشعلت السيجارة. قبَّلت الطفل بمناسبة عيد ميلادها. قالت له إن ذلك من المعتاد. ولما تخدرا بفعل استنشاق دخان السجائر ذي اللون الأزرق الرمادي، وضعت شفتيها على شفتيه لأن القبلة بطعم التباك أحلى شيء في الدنيا كما قالت، وكانت على حق.

ولكن الآن وقد حل الشتاء تقريبًا ولم يكن لدى ماريا أي شيء تفعله هنا في المدينة؛ الأقارب الذين يعيشون في المدينة عادة لا يستقبلون الزوار في وقت البرد، لأنه يجب أن يدفئوا غرفة إضافية وهو ما يجب تجنبه.

«جئت لنذهب معًا إلى زاغرب» قالت ماريا للطفل في مكر.

كان الطفل قد سمع شيئًا عن هذا، أن أباه سيأخذ شخصًا ما إلى زاغرب بالسيارة، ولكنه لم يصدق أنهم سوف يأخذونه معهم في رحلة طويلة كهذه.

«نعم سيأخذونك، بالتأكيد سيأخذونك». حاولت ماريا إقناع الطفل، «وهل تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى حديقة الحيوان!».

يا للعجب! حديقة الحيوان في زاغرب. مملكة الحيوان التي

تظهر على الصور التي يجمعها من علب الشيكولاتة سيراها حية. إن هذا فوق التصور.

كانت زحمة المرور في زاغرب شديدة كما قال والد الطفل عندما كان يدير بمهارة عجلة القيادة لسيارة زاستافا 110 [9] جديدة وهو يحاول ألّا يفقد سائق التاكسي الذي يسرع أمامه. عندما وصلوا إلى محطة القطار في زاغرب واكتشفوا أن هذه المنطقة هو كل ما يعرفونه في زاغرب، تقدمت أم الطفل إلى أحد سائقي التاكسي وسألته عن الطريق، فكان لطيفًا متعاونًا وعرض عليهم أن يتحرك أمامهم بسيارته ليدلهم ويأخذهم إلى هدفهم مجانًا. على الرغم من أن ماريا كانت في البداية تشعر بالغثيان في السيارة، كان رائعًا جدًّا أنهم كلهم اجتهدوا للوصول إلى حديقة الحيوان. وعندما وصلوا إلى المدخل أخذ الوالد والوالدة بيد ماريا والطفل وأسرعا بهما إلى الداخل لمشاهدة الحيوانات في الأقفاص. أطول مدة قضوها كانت أمام قفص الأسود؛ وذلك لأنه كان بالقرب من القفص مقعد معدٌّ للوالدين المتعبين اللذين تطرق الملل إلى نفسيهما، ليجدا ركنًا هادئًا لمواصلة تحطيم حياتهم الزوجية. في تلك الأثناء كانت ماريا واقفة دون حراك أمام القفص، ولكن عينيها كانتا تتنقلان بين الأسد واللبؤة.

«أيهما يعجبك أكثر، هذا الذي له لبدة أم هذا الذي له بطن كبيرة؟» سألها الطفل دون أن يتوقع جوابًا ثم جرى إلى قفص القرود.

9- سيارة كانت تصنع في يوغسلافيا في الستينيات والسبعينيات.

أخذت ماريا منديلًا من كمها ومسحت عينيها. نظرت إلى والدي الطفل الجالسين على المقعد وهما يلوحان بأيديهما وكأنهما يناقشان أمرًا بغضب؛ لذا فضلت الوقوف أمام قفص الأسد. تمشَّى الطفل ببطء من قفص القرود إلى والديه الجالسين على المقعد وهو فرح بما رأى من حيوانات لا يراها إلا في التليفزيون. كان الأب يبدو غاضبًا، أما الأم فأنهت الحديث بقولها إنهم سوف يطلبون قرضًا من البنك لبناء جناح إضافي إلى البيت دون نقاش، فالأطفال يكبرون بسرعة.

«بعض الناس لا يجدون مثل هذه الفرصة، إنه ذلك جيد لنا» جاء تعليق الأب اللاذع، ثم تقدم نحو قفص الأسد. أما الأم التي كانت ترشقه بنظراتها الحادة في ظهره فقد أخذت الطفل من مرفقه وأقعدته في حضنها، ومن خلف رأسه كانت تنظر إلى ساعتها المذهبة، وذلك يعني أن زيارة حديقة الحيوانات قد آذنت بالانتهاء لضرورة ما مجهولة.

ساق الأب سيارته صامتًا وبدون أي مصاعب في شوارع زاغرب رغم أن سائق التاكسي لم يتقدمهم هذه المرة. كانت المرأتان جالستين في المقعد الخلفي، وكانتا تنظران بفارغ الصبر إلى ساعتيهما النسائيتين. وقفت السيارة في شارع قليل حركة المرور على أطراف المدينة. ربتت الأم على كتف الأب في إشارة تصالح، فهي قد اكتشفت على التو أنه لا يزال لديهم من الوقت عشرون دقيقة. عندما شرحوا للطفل أنه سيبقى مع أبيه في السيارة لأنه لا توجد حديقة حيوانات أخرى في زاغرب؛ لذا فليس أمامه مكان آخر يذهب إليه، بكت ماريا. خرج الأب من السيارة في الحال ثم أشعل سيجارة. مسحت الأم على رأس طفلها بحنان وقالت لماريا:

«هل لديك نقود؟ أريني! حتى أرى! لا تعطيهم شيئًا مقدمًا، هل فهمت؟ سوف أنتظر في الممر ومعي النقود، وسوف أدفعها لهم عندما ينتهون».

بينما ذهبت الأم وماريا إلى شارع جانبي خلف مصنع كبير كتب عليه «كريم نيفيا» حاول الطفل الحديث مع أبيه. ولكن الأب كان يجلس مستندًا إلى عجلة القيادة تاركًا باب السيارة مفتوحًا، وكانت عيناه تسمرت على المرآة الخلفية وكأنه أيضًا ذهب مع المرأتين إلى مكان مجهول. وفجأة أراد الطفل أن يعرف إذا ما كانت ماريا ستأتي إليهم الصيف القادم في إجازة رائعة في المدينة. تنهد الأب ثم قال بأسى إن هذه الفتاة لا بد أن تحذر في المستقبل مَنْ تخالط.

عندها فهم الطفل أن هذه الرحلة ترتبط تقريبًا بالفتيان الذين أعطوا ماريا سجائر في يوم عيد ميلادها، وترتبط بالتدخين وبقبلتهما بطعم الدخان في المقبرة القديمة. حتى هو أيضًا ربت على كتف أبيه وكتم أسئلته الباقية عن حديقة الحيوان.

كانت عودتهم في ساعة متأخرة من الليل. جاءت الأم من الشارع الذي خلف مصنع كريم نيفيا وهي تسند ماريا وتحضنها بيدها، وقبل أن توسدها على المقعد الخلفي للسيارة غطت المقعد بمساعدة الأب ببطانية للاحتياط في كل حال. كانت ماريا هادئة تمامًا. وعندما أكدت لها أم الطفل أنه لن يعلم أحد في القرية أنها ذهبت إلى زاغرب للإجهاض حركت عينيها في تعب بالموافقة. وفي أثناء الرحلة كان الطفل ممسكًا بيد ماريا الملتهبة. ولما غلب عليه النوم رأى خلف أجفانه كيف يلعب مع صديقته القروية لعبة

الاســتغماية بين شــواهد القبور القديمة. كان الوقت صيفًا يناسب الوقوف مقلوبًا على اليدين على الحشــائش الناعمة. وعندما أمسك الطفل، الــذي هو في الحقيقة صبية قاربت السادســة من عمرها، بصليــب بالٍ بعد أن تشــقلب إلــى الخلف على يديــه، هزته برودة الشــاهدة التي تحمل الاسم فاســتيقظ. وفي تلك الأثناء كان شجار والديــه اللذين يقلقهما دم ماريا على البطانية قد تحول إلى تعميق شقاق حياتهما الزوجية. كان الطفل يقبل يد ماريا الباردة كالثلج، وفجأة غمره إحساس بأن صيفًا هادئًا جدًّا في انتظاره هذه المرة، بلا كلمات ولا نظرات في المرآة الخلفية، أو تشــقلب أو قبلات بين الشواهد الحجرية.

خِيَاطة الأميرة

لقد حان ذاك الصباح. استيقظت في الحال وذهبت إلى الحمام ونظفت أسناني وغسلت حتى يدي رغم أن أيدينا لا تتوسخ من النوم، ولبست ملابسي. في المطبخ جلست إلى مائدة الطعام، ومنذ وقت طويل أول مرة أجلس في انتظار الإفطار المكروه باستسلام ودون محاولات الإقناع. اليوم يمكن أن أقبل حتى بالخبز المقلي رغم أن البيض المقلي يبدو لي منذ زمن بعيد كريه الرائحة، وبدون تكشير يمكن أشرب القهوة البيضاء رغم أن طعمها آسن حتى وإن كانت طازجة. أفضّل الإفطار الكريه مرغمة مع أمي وجدتي على الرحلة المدرسية المرهقة إلى القلاع القديمة التي لم يَبْقَ منها غير أطلال مملة غطتها الأعشاب، فلا يتبقى لك من التاريخ إلا القليل، وما تبقى فهو طعم المرارة في الفم من القيء في الحافلة. في الآونة الأخيرة أتقيأ كثيرًا، وقد حدث ذلك آخر مرة أثناء حصة الرياضة، وذلك يعني، كما هو مكتوب في التقرير الطبي، أنني منذ ذلك الحين وإلى إشعار آخر يُسمح لي بترك حصة الرياضة وعدم الاشتراك في الرحلات المدرسية. ولكنني يجب أن أختلط بالآخرين أثناء الحصص. وفي الحقيقة حتى أثناء الحصص يمكن الإنصات للدرس، وبالتالي التخلص من الثرثرة المزعجة مع زميلاتي وزملائي، ولكن يجب عليَّ أن أختلط بهم

أثناء الاستراحات أو لا أختلط. أما الاختلاط في دورة المياه بجانب المرحاض ورائحته الكريهة فكان مناسبًا جدًّا إلى أن أخذ الآخرون يطرقون الباب ليطردوا المراحيضجيّة الذين يشغلون المراحيض دون سبب، دون أن يتبرزوا أو يدخنوا. أما في الربيع فكان الأمر أسهل. في الربيع أذهب إلى ساحة المدرسة وتحت الأشجار في الجانب الآخر للشارع حيث يُمنع التلاميذ من الذهاب، ولكن مرشدة الفصل سمحت لي خاصة أن أذهب إلى الجانب المقابل من الشارع (لم تنسَ أن تضيف أنه على مسئوليتي). وباختصار يحق لي أن أقضي حاجتي في منعزل وحدي دون أن يزعجني أحد.

«الخياطة تكون من اليمين إلى اليسار».

بدلًا من الرحلة بصحبة الحيوانات الفظة في المدرسة، أذهب مع أمي إلى الخياطة إليونكا. هذا هو يومي! أجمل يوم في كل هذا العام الدراسي. إليونكا تعيش في الجانب الآخر للمدينة، في بيت قديم على ركن الشارع حيث إنها في الحقيقة تعيش على جهتين، يمكنك أن تصل إليها من شارعين أحدهما متعامد على الآخر، ويمكن النظر إلى بيتها خلال صفين من النوافذ. نحن نذهب إليها دائمًا من الناحية اليمنى، كما تقول أمي وجدتي، من الناحية الظليلة التي تقع بمحاذاة الحديقة العامة للمدينة، التي يتجمع فيها الأطفال حول ملاعبهم في الساعات المتأخرة بعد الظهر، وبالأخص أولئك الذين يتبارون في جعل الآخرين يعثرون بوضع أرجلهم أمامهم أو شتمهم خارج ممرات المدرسة.

هذا هو اليوم الرائع الوحيد. رغم أنني جئت مع أمي من الناحية اليمنى، يجب علينا الالتفاف حول البيت والدخول من الجهة

الأخرى، لأن باب المدخل يقع على الجانب الآخر. ضغطت جرس الباب. أعلم أنه سوف يمر بعض الوقت قبل أن تتوقف ضربات ماكينة الخياطة الرتيبة ثم يسمع صوت ممدود "نااااعاااام"، ثم يسمع صوت خطوات عرجاء يذكّرني بصوت ضربات ماكينة الخياطة، فهي تمشي في خط متعرج لا يُرى بسبب قصر رجلها. عندما تبدأ في فتح وسحب الباب الذي وضع ضيقًا في إطاره تهتز الكلمات المكتوبة بلون وردي على لوحة خضراء باهتة معلقة على واجهة الباب، والتي عادة تخطئها العين لولا اهتزاز الباب: "إيلونا تش. شنايدراي[10]". إيلونا هي أم إيلونكا، وقد توفيت، ولكن الابنة لم تغير الكتابة على اللوحة، فالفرق لا يتعدي حرفًا واحدًا فقط.

إيلونكا كانت دائمًا تحتضنني إلى جسمها النحيل وكنزتها الرمادية المخضرة التي تفوح منها رائحة الخيط والطباشير وقطع القماش. كانت جدتي تقول إنها دائمًا ما تحضنني بحرارة لأنها لم تستطع إنجاب أطفال، وقد يكون ذلك بسبب رجلها القصيرة. من يخطر على باله أن طول الرجل له تأثير على شيء كهذا؟ بعد ذلك تجفل إيلونكا فجأة وتضعني بعيدًا عنها ثم تنكش شعري وتقول: «حتى لا أَخِزَك!» وكانت كنزتها دومًا مليئة بالدبابيس ذات الرءوس المعدنية الملونة، وبالإبر التي تستخدم في الخياطة اليدوية وبالماكينة، وعديد من القطع المعدنية المختلفة التي لا يعرف استخدامها أحد إلا الخيّاطات والترزية. ثم احتضنتني وأخذتني إلى معمل الخياطة الكبير الذي يقع تمامًا في ركن البيت حتى يصله النور من الجهتين، من كل النوافذ الأربع الكبيرة.

10- كلمة ألمانية تعني الخياطة.

«أهم شـيء هو النـور، وقد قلت لك ذلك مسـبقًا، أليس كذلك؟» ومـرة أخرى نكشـت شـعري فـي سـرور. الخياطـة إيلونكا هي الإنسـان الوحيد الذي ينسـى الكبار عند قدومي ومن أجل الحديث معـي. فالكبار يرفعـون أصواتهم عالية عندمـا يكونون في زيارة ويحاولون قدر إمكانهم أن يستولوا على اهتمام الآخرين.

«إذن أنت حقًا لديك رغبة في تجربة الخياطة؟» سألتني إيلونكا. هـززت رأسـي بالموافقة وتـوردت وجنتاي. التفتُّ إلـى أمي التي فتحـت حقيبة كبيـرة وأعطتني قطعة كبيرة مـن القماش مطوية، دون الحاجة أن تشـرح أين وبكم اشـترتها. أخذتْ قطعة القماش المطويـة ووضعتْها بوقار على طاولـة التفصيل، التي يمكن عليها الحصول على مكان لكوم جديد من قطع القماش أو الفساتين التي يجلبهـا الزبائن. ونظـرت إلى إيلونكا التي كانت تشـجعني قائلة: «أريد أن أراه، أريد أن أراه».

مزقت لفافة الورق ونشـرت القماش. كان قماشًا أبيض فاخرًا، عليه وردات لامعة بارزة كمرآة تنعكس منها الألوان متعاقبة كقوس قزح. غطت إيلونكا فمها من الدهشة ومن الإعجاب كما أعتقد.

«والآن، ماذا سـوف نصنـع من هذه الروعة؟» سـألتني دون أن ترفع عينيها عن القماش. «إنه... إنه... عالي الجودة».

نظـرتُ إلـى أمي وابتسـمتُ في حذر، ثـم قلتُ: «هذا سـيكون للكرنفال».

صرخـت إيلونكا بصـوت خافت صرخة إعجـاب وغطت وجهها بيديها ثم جلسـت، لأنها تقف بصعوبة وكلنـا نعرف ذلك. كما كنا نعـرف أيضًا أنها مرة في حياتها ولكن حقيقة مرة فقط أرادت أن

تتزوج وتعيش حياة عائلية. أخذها خطيبها معه إلى أستراليا حيث كان يعمل لسنوات. إيلونكا كانت تقضي أوقاتها قابعة في مسكنها في أستراليا وكانت تعمل بالخياطة دون أن تتحدث إلى أحد. لم تكن تفهم شيئًا؛ لذا حبذت البقاء في مسكنها حتى لا يتكلم معها الجيران بالإنجليزية. ولما رأت أول كنغر في حياتها غطت وجهها من الرعب وأصيبت بالغثيان. هكذا كانت تقول جدتي. إيلونكا حزمت حقائبها وأخذت الطائرة عائدة إلى يوغسلافيا. أما خطيبها السابق فهو كما يقال حتى لم يرافقها عند الوداع.

«ماذا ستفعلين بلباس الكرنفال؟» قالت أمي بنغمة شك وكأنها تريد أن تقول إنه من الخسارة دفع ذلك المال من أجل لباس مقنع للكرنفال. ثم ودعتني وبدون أي اعتراض تركتني عند إيلونكا.

في كل الأيام التي تلت ذلك اليوم كنت أذهب بعد المدرسة لورشة الخياطة. الآن نسيت المدرسة تقريبًا، ولم أعد أفكر ماذا يمكن أن يحدث لي في ممرات المدرسة أو في ساحتها. منذ بدأت أذهب بعد الدرس في طريق آخر في اتجاه المستوصف ولا أذهب إلى بيتنا، كانوا يتركونني في سلام. ربما يظنون أنني أذهب لتغيير رباط جرحي. لم يكن أحد يعلم أنني في الحقيقة أذهب إلى الخيّاطة. آخر مرة رآني فيها الطبيب كانت قبل يومين. قال إنني متجلدة، ولكن ما كان يهمني هو كم يتطلب من الوقت حتى تشفى جروحي. قال: «بعد أسبوع تقريبًا»، وكان دائمًا ما يقول ذلك. ثم نظر إلى وجهي عن قرب ولمس عظم الحاجب وقال للممرضة:

«لن ننزع هذه الغرز اليوم».

ثم نظر مرة أخرى في عيني وكأنه تذكر فجأة أنه يعنيني بما

يقـول وقال بابتسـامة عريضة: «إنه يلتئم بشـكل جيد. لقد عملوا شـيئًا رائعًـا. سـوف يلتئم كل شـيء بعد زمـن، وسـتقوم الغرز بوظيفتها، ثم سـوف نعطيك مرهمًا للندبات. وسيتعافي كل شيء إلى حين الزواج».

سـألت نفسـي: هل قالوا أيضًا للخياطة إيلونـكا التي لها رجل قصيرة، إنها سوف تنمو لها رجل إلى أن يحين الزواج؟».

كل مـرة عندمـا أغـادر العيادة أشـعر بأنـي مثل بطـل. بطل تاريخي، كما تشـعر تلك الأطلال التي يأتي النـاس لزيارتها لأنها حاملة للتاريخ. ولكن فقط إلى أن أخرج من باب المسـتوصف إلى الخارج وأنظر إلى الحديقة العامة أمامي. الحديقة وملعب الأطفال بها، والشـجر الكثيف الشـيطاني بجذوعه السـميكة التي تختفي فـي داخلها فتحات خانقة الرائحة، وفيها الأطفال الذين يشـتمون الآخريـن ويضعون العراقيل تحت أرجلهم. إنه من الرائع أن يكون بيـت إيلونكا قريبًا، وأنهـا ترافقني إلى بيتنا عندما يهبط المسـاء ونحـن لا نزال منهمكتين فـي الخياطة، دون الحاجة لأن أذكر ذلك لها، ثم نعرج في طريقنا عبر وسط المدينة.

«الغرزة الأخيرة على صفحة القماش تكاد لا تظهر. نستخدمها غالبًا لخياطة السوستة».

جدتي تقول إن الكرنفال بلا ثلج لا قيمة له. حتى لو سقط الثلج بعد الكرنفال فإن ذلك يجلب سـوء الحظ. وسوف تأتي الفيضانات في مايو. أشـهر الشـتاء عند جدتي تتكاتف مع أشهر الصيف. إذا سـقطت الثلوج متأخرة في مارس تأتـي الفيضانات في مايو، في ديسـمبر تقام الذبائح، في فبراير تأتي الشـمس المسـننة الباهتة

التي بسببها يتعفن كل شيء. يبدو لي أن مثل هذه الشمس كانت تشع في منتصف هذا الشتاء، لقد كان الضياء غير اعتيادي في عصر ذلك اليوم الشتوي. في الحديقة العامة حيث الأولاد يضعون ما يعرقلون به الآخرين ويضربونهم. كانوا ذات الثلاثة، ذات الأصوات، ونفس الحركات العصبية بالرأس. أحيانًا كانوا يقفون أمام المدرسة. طبعوا صورتي في ذاكرتهم منذ ذلك اليوم لما كنا نمارس الرياضة البدنية خارج المدرسة وكنا نجري ونقفز ونحن شبه عراة. «انظر إلى هذه البنت» صاح أحدهم وهو يشير بأصبعه نحوي. «ماذا؟ أي بنت هذه أصلًا؟» أضاف الآخر. ولحق بهما ثالث، ذو شعر طويل: «ولكن مع ذلك أرجلها طويلة». هذا كان يحب النظر إليَّ بعيون لامعة؛ لذلك كان أكثر واحد بينهم أكرهه. كان الثلاثة يحبون الوقوف أمام المدرسة للاستعراض والتشفي منا نحن الذين لا زلنا في المدرسة الابتدائية. صوت الولد ذي الشعر الطويل كان يبدو لي أكثر بذاءة وفحشًا، صوت الذين يشجعون بينما الآخرون يرفسون. لقد كان هو الذي أمسك رقبتي في الحديقة بيد مرتعشة مبللة. كان أول من لمسني. عندما انسابت أصابعه الصفراء من النيكوتين تحت قميصي، قام الأوسط منهم الذي يدعى «روبياش» أو السجين، برفسة سريعة أزلّ بها رجلي. كان بطل الكاراتيه في المدينة عندما كان بالمدرسة. ظهرت صورته مرة في مجلة المدرسة. بعد أن وقعت على الأرض كل شيء كان سهلًا. إذا فقدت توازنك، لم تعد عيناك على مستوى عيونهم.

«إذا أردنا إنهاء غرزة أثناء الخياطة، فيجب أن نُبقي الإبرة في القماش».

لم يسقط ثلج طيلة شهر يناير، هكذا يتكلمون في شارعنا. أينما تذهب تسمع الحديث عن أن الشتاء لم يعد ذاك المعتاد، وأنه حتى في فبراير لن يسقط الثلج، وذلك مرعب جدًّا، يقارب بداية نهاية العالم. أما أنا فلا يهمني هل سيسقط الثلج إلى وقت الكرنفال أم لا. فستان الأميرة معلق الآن على دمية الترزي في مشغل إيلونكا الواسع.

قبل أن نبدأ في العمل أنا وإيلونكا، نفسح مكانًا على طاولة التفصيل الكبيرة كل عصرية، ونضع فناجين من الشاي ونشرب الشاي بسرعة في رشفات رتيبة، لأننا نحاول الاستفادة من آخر بصيص من نور النهار. وفي هذه الأثناء نميل رءوسنا إلى جانب وننظر بإعجاب إلى الفستان الأبيض اللامع وقد قارب على الانتهاء. بعد أن نرشف الشاي بوجوه مكشرة نوقد المصباح. ذلك المصباح شديد الإضاءة من النادر أن ترى مثله في مدينتنا. توجه إيلونكا المصباح تمامًا إلى الفستان المعلق على الدمية. ثم نقوم بتسوية القطع المتعرجة من القماش الأبيض المثبتة بالدبابيس فقط.

«في نسيج الجلد يجب أن تكون أطراف الجرح مستقيمة مشبعة بالدماء وحية. أطراف الجرح لا بد أن تتلاصق على طول الجرح وعمقه».

يجب علينا ألّا نترك شيئًا للصدفة والغرز المهزوزة التي يمكن إصلاحها؛ لأن مثل هذا القماش لا يمكن إنهاكه بالثقوب، هكذا تقول إيلونكا. لذا نقوم بإعداد كل شيء على دمية الترزي أولًا. أحيانًا نادير الدمية وأحيانًا نادير المصباح، لأن قطع القماش وحوافها يجب أن تقاس بدقة قبل أن تربط بالغرزات النهائية. هنا

لدينا أيضًا الوردات المجسمات، لذا يجب تركيبهن بحذر على قطع القماش المختلفة. وفوق ذلك هذه الوردات تعكس النور بألوان مختلفة باختلاف زاوية سقوط النور عليها وتربك العين، لأنها تعكس كل ما يقع بالقرب منها.

على الرغم من أن كل شيء قد حصل بسرعة مهولة، حتى إنه أصبح من الصعب شرح ووصف ما حدث بإسهاب دون أن تشك فيما تقول، وقد تغير موقعي بسرعة تحت وقع الضربات والرفسات، لا زلت أتذكر أشعة ضوء المساء الحمراء وهي تنساب على رقع الثلج التي تغطي أرض الحديقة. وأتذكر أكثر ما أتذكر عيونهم. عيون ثالثهم السوداء، كان أكبرهم وكان قد فشل في كل المدارس، كانت عيونه تشع فرحًا خبيثًا، وبالأحرى تشع أملًا أنه سوف يجرب شيئًا جديدًا لم يعتده، ولذا من الخسارة أن يتركه يفلت منه. كانت نظراته تتنقل بين أصدقائه وجسمي من فرط انفعاله، وكانت ضرباته غير دقيقة وكأنه نسي أن تسديدها يقاس بالعيون وليس بقبضات اليد. ولكن يبدو أن ضربته العوجاء هي التي أتلفت طبلة أذني وإن كانت لم تكسر عظمة الحاجب الأيسر. زملائي وزميلاتي بالمدرسة يعتقدون حتى الآن بأنني لا أستطيع السمع بسبب حادث الحديقة العامة. وفي الحقيقة سمعي جيد ولكن لا يعلم أحد في المدرسة ذلك.

كان لبطل الكاراتيه السابق روبياش وجه منحوت مدبب تختفي فيه العينان. يظهر في كل صوره في الجريدة المدرسية التي تعلق في ممرات المدرسة وكأنه بدون عيون. ولكن عندما رفسني في الحديقة العامة لأفقد توازني وأسقط، كانت نظراته مركزة تمامًا مثل حركاته الأخرى. بؤبؤ صغير في وسط الزرقة الرمادية، صغير

ثابت فقط لتقييم المسافة إلى الهدف. أثناء سقوطي على الأرض كان طويل الشعر لا يزال يمسك بشدة على رقبتي، حتى إن رأسي احتك بفخذيه وعليها بنطلون الجينز المشدود. وفي هذه الأثناء القصيرة انفجر الثلاثة كلهم في قهقهة قصيرة حادة وكأنه حدث شيء مثير للغاية لم يكونوا قد خططوا له، وكأن ذلك إسهامي غير المتوقع لزيادة متعتهم. قد لا تكون القهقهة نابعة عنهم، فقد كانت تُسمع مكتومة وكأنها عن بعد، بل قد تكون القهقهة من ملعب الأطفال القريب. قد تكون هذه القهقهة هي ضحكة الحديقة نفسها التي يحمل مدخلها الرئيسي لوحة كُتب عليها بخط كتبه بتكلف تلاميذ فصل من فصول السنة الثالثة: "الحديقة العامة هي قلب مدينتك؛ لذا حاذر كيف تمشي فيها".

كان لذي الشعر الطويل عيون مميزة لامعة. وفي الحقيقة أتذكر هذه العيون منذ أن كان في المدرسة الابتدائية عندما كان يتسكع أثناء الاستراحة ويوقع التلميذات الصغيرات على الأرض ويتلمسهن وأنا بينهن. كانت عيناه تشعان لطافة لئيمة، لطافة من يتعقب الآخرين، فقد كان يصاحب النظرات تلك لعق الشفتين الذي ورثه عن أخويه الكبيرين اللذين لا يختلفان عنه في الغباء. طاردني مرة في الحديقة العامة. وحتى بعد أن توقف رفاقه عن مطاردتي وذهبوا يبحثون عن لعبة أفضل بقي هو مثلي يغير اتجاهه باستمرار ويأخذ طرقًا جديدة وينصب لي الكمائن، ولم يكن من السهل التخلص منه حتى على الدراجة. كان دائمًا آخر من يستسلم. أثناء سقوطي الذي استغرق وقتًا طويلًا واحتكاك رأسي بفخذيه المشدودين ببنطلون الجينز، كانت نظراته هي نفسها التي أتذكرها في صالة الطعام بالمدرسة، نظرات جائعة متسرعة،

عندما كان يمد يده الطويلة فوق رءوس التلاميذ الصغار ويأخذ قطع الخبز مدهونة بمعجون اللحم.

"اتركها" قال روبياش بأمر المدرب المتعالي الذي يسعى إلى أن يطاع ويحترم دون أن يصرخ. عندما ترك ذو الشعر الطويل رقبتي بدفعي نحو الأرض خفت أن يرتطم رأسي بالأرض دون واقٍ. ولكن عندما ارتفعت قدم روبياش في حذائه الشتوي الثقيل نحو وجهي، انتابتني موجة ارتياح غريبة أن هذا الحذاء سوف يحميني من الارتطام بالأرض المغطاة بالحصى الصغير الذي كان يلمع تحت طبقة الثلج الرقيقة. عندما وقعت على الأرض بعدما رفعتني قوة القدم المضادة في الهواء، اكتسى الحصى الصغير باللون الأحمر معطيًا نعومة مجسمة تكاد تكون مخملية.

«عند الأركان نترك الإبرة على الركن تمامًا، ونرفع قدم ماكينة الخياطة، وندير القماش حول الإبرة. ثم ننزل قدم الماكينة ونواصل الخياطة».

استمرت الخياطة لمدة ثلاثة أسابيع. من ناحيتي أنا فلتستمر حتى سنة أو أكثر. في ذلك اليوم لما كان الفستان معدًّا للتجربة الأولى على الجسم الحي أخذت إيلونكا زجاجة الشمبانيا التي كانت تحتفظ بها خلف الزجاج المصنفر في دولاب قديم. كان ذلك من وقت زواجها في أستراليا. وبينما كانت تخلع الفستان الجاهز بعناية من الدمية، أحسست بالبرد بالملابس الداخلية فقط.

بعد سقوطي على الأرض لم يَبْقَ بي أثر للحياة. في تلك اللحظة عندما توالت الضربات النهائية الأخيرة سريعة وفي عجلة، لأن الأمر قد طال أكثر مما يجب لانتقام سريع، ولأن ضياء النهار كان لا

يـزال مخيمًا. أتذكر عصفـورًا كان يطير على ارتفاع منخفض بين الأشـجار وأتذكر رفرفة أجنحته. صوت الأجنحة كان يُسـمع حتى بعـد أن طار العصفـور واختفـى. أحيانًا كان العصفـور يرفرف بصوت عال قريبًا من أذني. عندما أدارت ضربة جناحه رأسي نحو النور المتلاشـي بين أغصان الأشـجار، لاحظت من خلال أجفاني المنتفخـة أن الصوت لم يكن إلا ضربات رتيبة للأقدام على ظهري ورأسي. طويل الشـعر كان الأخير بينهم. كان لا يزال يضرب رغم أن صاحبيه قد هربا وبدءا بالتفكير في الطريقة المناسـبة لاختتام هذه الأمسية التي بدأت مثيرة هكذا. شعره الأشعث التصق بلزوجة بيضـاء على جوانب فمه. بـدا وكأن صوتًا بعيدًا غير منتظم يخرج مـن جوانب فمه تلك. عندما ترك طويل الشـعر مجال نظري ظهر فيه زوج أسـود من الأحذية النسـائية العالية، إحدى فردتيه نعلها سـميك. رغمًـا عني تملكني تفكير عما إذا كانـت فردة الحذاء ذات النعل السـميك التـي أحدثت ذلك الصوت هي اليمنى أم اليسـرى. عندمـا بدأ ذلك التفكير يصيبني بآلام شـديدة في الرأس كان وجه إيلونكا ينحني فوقي. ثم اعتدلت جالسـة وأخذت تلوح بيدها بشدة لشـخص ما وهي تفتح فمها. وبما أنني لم أسمع صوتًا يخرج من فمهـا تملَّكني شـعور أنني منذ وقعـت على الأرض وأنا لا أسـمع شيئًا، وأن الأصوات المشوهة التي تسلسلت على سمعي هي بتأثير استنتاجاتي التخيلية الخاطئة عن الأصوات ومصادرها.

«في فن الخياطة يجب اختيار نوع الغرزات المناسب. لا بد أن نراعي البعد الصحيح بين الغرزات، كما أنه يجب أن تتغلغل إلى العمق المطلوب لتربط طبقات الجلد المعينة بين بعضها».

وأخيرًا أبتلعُ اهتياجي وأسـمح لنفسـي بالنظـر في المرآة. أول

مـا وقعت عليه عينـاي هو انعكاس عيني ولكـن ليس على صورة وجهي فـي المرآة، بل على الورد اللامع على الفسـتان. ذلك الورد المحاك يعكس في مجموعه كل شـيء: عينـي، الندبات المتعرجة على وجهي، الأسـورة الصغيرة على يد إيلونكا المشبوكة من فرط الدهشـة والإعجـاب، وحذاءها وشـعرها. كان وجهـي يتلألأ، هذه الأميرة في كمالها تظهر منعكسة على المرآة، هي أنا. وضعت يدي علـى فمي ثـم على عيني ثم على جبهتي. من شـدة الفرحة لم أعد أدري مـا يمكنني أن أفعل. صفقـت إيلونكا بيديها وأخذت زجاجة الشـمبانيا من على الطاولة ورجَّتْها ثم بأصبعها نزعت السـدادة. صوت انفجار أعادنا إلى الواقع. أطلقنا صيحة وحملنا كأسينا إلى الزجاجة وهي تفور. صعدت الفقاعات موشوشة إلى رأسينا. وقفنا والكأسـان في يدينـا بجانب النوافذ الكبيرة علـى نفس الجهة من البيت التي تشرف على الحديقة العامة في وسط المدينة، وفستاني يتوهـج بالألوان المعدنيـة في تلك الليلة الشـتوية الوليدة. إيلونكا تفرغ كأسـها ثم تقول إن كل شيء يمكن فعله بالنظرة الصحيحة. كل الملابس تخاط بالعيون. أما أنا فلم أستطع أن أنطق بكلمة.

«نصنع عقدة ثم نشدها حتى تلامس حواف الجرح أحدها الآخر وترتـفع عن مستوى بقية الجلد».

أراد والـدي ووالدتـي الانتقـال. يجب تغيير البيئـة، هكذا كانوا يقولون حتى في غرفة المدرسـين، وفي عجلة يجب إصلاح الحالة حتى لا يؤثر ذلك على نجاحي بالمدرسـة وعلى سـمعة المدرسة. لـم أدْرِ في الحقيقة هل أراد أهلـي الانتقال حقيقة؟ أنا بالتأكيد لم أُرِدْ ذلك. إنما كانت تلك إرادة المستشـارة الاجتماعية والمستشارة النفسـية والشـرطة. أما المخبر فكان ألطفهـم؛ لأنه كان لديه ألف

سـؤال، ولأنه تعامل معي وكأن القضية سر بيني وبينه فقط. كان يقول لي إن علي أن أتذكر وجوههم عندما لا يؤلمني رأسـي. لأنني إذا تذكرت أحدهم فسـوف أتذكر الآخرين. كان آخر مرة عندنا ذات المساء الذي لبست فيه قبل ساعات فستان الأميرة للمرة الأولى عند إيلونكا وقد دغـدغ القماش الأبيض جلدي. انتظـر المخبر عودتي في صبر حتى يعلم إن كنت تذكرت شـيئًا جديدًا. لا، لا أتذكر شيئًا أبدًا. لا أدري إذا ما كان المهاجمون قد تكلموا بشـيء، لأنني وإلى الآن أسمع بصعوبة كبيرة. لا أتذكر شيئًا بعد الرفسات التي أصابت رأسـي. نعم، أظـن أنهم كانوا ثلاثة أولاد. مـن المحتمل أنهم كانوا ثلاثة أولاد. لا أعرف وجوههم ولا أدري من أي مدرسـة هم. من كل المـدارس. بعد ذلـك كعادته دائمًا، ربت على يدي وسـألني بعض الأسـئلة المملة عن المدرسة وعن نتيجة مباراة كرة القدم البارحة. وحتـى عن مثل هذه الأشـياء ليس هناك ما يمكـن أن يقال. هل قد شتموني قبل ذلك في المدرسة؟ قلت: لم يحدث شيء يذكر. هل قد حصل من قبل أنهم رموني بعبارات بذيئة؟ حسنًا، استسلمت، نعم لقد عيروني بكلمة شمطاء أو حيزبون. لا أدري إذا ما كان هذا يعد شتمًا. ولكن في الحقيقة ليست كلمة طيبة. هل كانوا يدفعونني؟ لا أدري تمامًا، من؟ الكل. يحدث عادة أثناء لعب كرة السلة أو الطائرة في ملعب المدرسـة، ولا أتذكر الأوجه. على كل حال كانوا يطلبون منـي دائمًا أن أبتعد عن طريقهم فـي الممرات، في الحمامات، في الفصول، وحتى في الشـارع. المخبر يهز رأسه ويتظاهر أنه فهم. يأخذ رشـفة من القهوة ويشعل سيجارة ثم يقوم. عندما أحسست بالارتياح فجأة رفع إصبعه وكأنه لا يسـتطيع الكلام بنفس سرعة تفكيـره لأن فمه مليء بالقهوة. «هل قال لك أحدهم...» بلع القهوة وواصل قائلًا: «هل قال لك أحدهم: مثلي؟».

نظرت في الفراغ. كل أفكاري كانت متركزة على الفستان الأبيض وعلى الأنوار التي تنكسر على صفحته عندما أرفع يدي وأكمامي التي تزينها الأكتاف المحشوة والقطع المتدلية من القماش السميك التي تعطي الفستان ميزته الحقيقية.

«غرزة الأطراف لا تكاد تبين، ونستخدمها عادة لخياطة البطانة. نستخدمها أيضًا عندما نريد إصلاح غرزة على صفحة القماش لا يمكن الوصول إليها من الوجه الآخر للقماش».

كان عليَّ أن أنتظر حتى يمر وقت الكرنفال، فهم لا يعلمون هل مر وقت الكرنفال أم لا. يعلمون فقط أنه هذا وقته. اتخذت موقعًا جيدًا بين الشجر. عندما أقف وسط الشجر على الثلج، فستاني والطرحة المرافقة من نفس القماش تعكسان الأطياف البيضاء والخضراء فقط.

لذا كنت في الحقيقة متخفيًا.

يقتربون مني. يحملون الزجاجات في أيديهم ويتحدثون بخلو بال. روبياش وذو الشعر الطويل وأكبرهم. بدءوا في الترنح قليلًا ثم فجأة توقفوا وبدءوا يبحثون عن شيء في جيوبهم. أول من وجد سجائره كان روبياش وقدمها للآخرين. توقفهم هذا كان فاصلًا في تحديد النور المناسب وفي اللحظة المناسبة. السجائر المشتعلة تقترب. يظهر من أصواتهم أنهم سكارى، أكثر من تلك المرة عندما تقابلنا في الحديقة العامة. عندما تهبط الشمس أكثر ويتلفع الثلج تحت أشعتها بالاحمرار، أخرج من بين الشجر إلى الطريق أمامهم. لا ينظرون إليَّ كلهم في وقت واحد. أولهم روبياش الذي حوَّل نظره بعيدًا غير مصدق ما تراه عيناه ويظن أنه مخطئ

فيمـا يراه. ولكـن نظره الثاقب لم يكن ليخونه أبـدًا. الوردات على فستاني الأميري يعكسن ضوء الكرة المتوهجة في السماء وبنفس الوقـت الثلج المحمـر. كن يظهرن وكأنهن بقع دماء على فسـتان أبيض. كنت أقف هناك. ظننت أن أحدهم سوف يصرخ، وخصوصًا ذو الشـعر الطويل، ولكنه كان الأول منهم الذي اسـتوعب الموقف وجرى بعيدًا وهو سـكران حتى سقط خلف أحد الأعمدة الحجرية التي توضع عليها في الربيع مقاعد للجلوس. صرخ أكبرهم مناديًا أمه، وكان لا يسـتطيع أن يخفي انفعالـه، ثم هرب وهو يبكي قدر ما تحمله قدماه، وكان يتلفت خلفه بأمل خبيث أن الأميرة الملطخة بالدماء سـوف تهاجم رفيقيه الآخريـن. ولكن روبياش هو الوحيد الـذي أخذ يلعـن، وللحظة فكـر أن يقترب ويتصدى للشـبح. هو الوحيـد الذي يظهر خوفه الحقيقي رغم قبضته المرفوعة. لقد بلغ بـه الخوف أنه لم يجـرؤ حتى على الهروب. في تلك اللحظة نهض ذو الشـعر الطويل من الثلج والتفت إلـيَّ وعلى حاجبه تظهر آثار دماء. أخذ يلوح بيده لروبياش بطريقة هستيرية أنّ عليه أن يتحرك من مكانه، ثم يجري إلى الإمام حتى ينقذ نفسه إن لم يستطع إنقاذ صديقه. جرى بعشوائية دون أن يدري إلى أين، وأخطأ كل الطرق في الحديقة وابتعد ورجلاه تغوصان في طبقة الثلج السميكة. أما روبياش فقد أخذ يغوص هو أيضًا في الثلج دون تفكير وهو يتبع صديقه.

أما أنـا فلا أزال أقف على الثلج المتوهـج، وأنظر كيف يهربون مما ينعكس على أعينهم من الوردات اللامعة على فستان الأميرة.

وبعد فترة في البيت، عندما هبط الظلام وأسـدلت الستائر على صفَّـي النوافذ، أحضرت لي إيلونكا شـايًا وأخذت تمسـح البودرة

البيضاء من وجهي. كنت أحكي لها للمرة الثانية حكاية الأميرة الدامية والفتيان الثلاثة، ورغم ذلك لا تزال تهز رأسها وتضحك في نفسها قائلة:

«أيهم كان أسرعهم جريًا؟».

«ابن أختك بالطبع، رغم أنهم أكبرهم، ولكنه كان يجري بسرعة البرق!».

«أعلم ذلك!» ترد للمرة الخامسة وتضحك حتى تكاد ينقطع نفسها. «أختي كانت امرأة متزوجة وأمًّا مشاكسة خبيثة، وميزتها الجيدة الوحيدة هي أنها لم تعر الخياطة أي اهتمام لأن رجليها متساويتان في الطول».

كانت إيلونكا لسنوات طويلة تتصل بأختها الشريرة بانتظام كما وعدت أمَّها المتوفاة. وفي الأسابيع الأخيرة تتحمل على مضض افتخار أختها ببيتها والسيارة وبابنها ذي الكفاءة العالية الذي لا يلاقي صعوبات في المدرسة ولكن ليس ذا حظ وافر في حياته. ولا تنسى أبدًا أن تتحدث عن البلاد التي قد سافر إليها ابنها، وماذا كان يفعل ذلك اليوم، وماذا كان سيفعل اليوم التالي. إيلونكا كانت لا يسعها إلا أن تتذكر أين سيكون ابن أختها. أما الآن فسوف نخلد إلى السكون بضعة أشهر. قد ننتظر الربيع الذي سوف يتلألأ بصورة أخرى على الوردات البارزة.

قالت إيلونكا: «لقد سقط كثير من الثلج، كثير على غير المعتاد في مثل هذا الوقت» وهي تدفع برجلها القصيرة ماكينة الخياطة القديمة.

رددت عليها: «ستكون فيضانات في مايو، بالتأكيد».

أوقفـت إيلونكا الماكينة برهة ثم نظرت من خلال النافذة وهزت رأسها.

«من المهم جدًا أن نختار الخيط المناسب لكل غرزة، وأن نعملها في المكان المناسب، وأن نربط العقدة ونوثقها بالقوة المناسبة».

شقوق في الغسق

مال النهار نحو المساء عندما التقطت القفازات من الوعاء. كان الوعاء المليء بالطلاء لا يزال بجانب السلم المسند على الجراج. والميزاب في أعلى الجراج قد طُلي تقريبًا إلى النصف. بدا لي أن بعض قطرات الطلاء الأسود سقطت من فترة إلى أخرى، أو قد يكون ذلك الإحساس بسبب الغسق الذي بدأ في التعتيم بلا هوادة. في تلك اللحظة اتخذ الانتقال من النهار إلى الليل معنى ملموسًا.

كانت القفازات التي التقطتها من وعاء الطلاء ثقيلة وسوداء تمامًا والصبغة السوداء تصب منها. بصعوبة كبيرة أدخلت يدي فيها فازداد تصبب الصبغة بقوة. أسبلت يدي إلى جانبي حتى لا تسيل الصبغة داخل أكمامي، لأنها كانت باردة كالرصاص، ولكن ذلك لم يُفِدْ شيئًا، ثم أبعدت يدي عن جسمي على شكل حرف «V» مقلوب حتى لا تقطر الصبغة على حذائي.

كان البيت خاويًا. خاويًا تمامًا. كنت أعلم ذلك جيدًا رغم أني لم أكن أتخيل غرفًا فارغة، أَسِرَّة فارغة وبقايا لأثاث مغطاة بملاءات بيضاء، وبيوت العنكبوت في الأركان. لا أدري إذا ما كانت المرآة الضخمة القديمة التي كنا نسميها (النفس) وكان لا يستطيع أحد

الوقـوف أمامها فـي الليل وإلا جذبته إلى داخلهـا، هل لا زالت في غرفـة نوم جدي وجدتي؟ مدفـأة الزيت المعطوبـة يحتمل أنها لا زالـت في الممر. وماذا عـن الجرامفون الألمانـي القديم في غرفة الجلوس الذي تسربت إلى داخله سلسلة ذهبية تحمل صليبًا، ولهذا السبب فقط لم نعطه أبناء الجيران؟

إذا تذكرت المطبخ شممت في الحال رائحة الشوربة الحامضة، وتجمعـت في عيني دمـوع من تأثير البصل، وأحسسـت في فمي شـعيرات من فرو القطـط. قطتنا نقطة كانت تحـب الجلوس إلى جانـب فرن الحطب حتى في الصيف عندما لـم يكن هناك تدفئة. ذات يـوم قفزت على سـطح الفـرن المحمرّ من الحـرارة، وهناك وقفت كأنها تسمرت في مكانها وعيناها تنظران في الفراغ. أخذها جدي بسـرعة واندفاع قابضًا على جلد رقبتها ورماها على الكنبة. "حيوان غبي، عليها اللعنة من حيوان غبي"، همهم جدي غاضبًا.

فـي الركن لا يـزال حوض الغسـيل كمـا كان. هربـت إلى هذا الحـوض في يـوم ذكـرى القديـس شـتيفان عندما جـاء الغجر بشواربهم وكمانهم، وكانوا يطرقون باب كل من اسمه شتيفان "أنا أيضًا شتيفان" قال لهم جدي ودعاهم ليدخلوا بيتنا.

هربـت إلى هذا الحوض عندمـا ذبحوا الخنزير فـي الفناء، في أول أيام الربيع حدثت حادثة. الخنزير هرب من الزريبة. قد يكون رفع غطاء فتحة الباب بخطمه (بأنفه) ودفع جسـمه إلى الخارج. كنت أحس أن ذلك سـيحدث ولكن لم أجرؤ على قول ذلك. من كان سيصدقني أن خنزيرًا بهذه البدانة يمكن أن يتسلل هاربًا؟

"ها قد هرب الخنزير" أعلنت بحذر في المطبخ.

"لـم يهرب إلى أي مكان. ما هـذا الهذيان الذي تقولينه؟". جاء رد جدتي التي التقطت مرة لنفسها صورة مع أكثر خنازيرنا سمنًا.

"ولكنه هرب, لقد رأيته هناك في الحديقة".

وبعد قليل أمسكوا بالخنزير. من خلال شقوق الستارة الخشبية لنافذة المطبخ رأيت بعد ذلك طاولة كبيرة من خشـب البلوط يقف بجانبها جزار ضخم الجثة وقد شمر عن ساعديه.

عندمـا انتشـرت الرائحة الكريهة للـدم المشـوي بلونه الأحمر البني، رأيت دموع جدتي تتسـاقط "جدتي، هل ستصلين الآن؟". "لا، لن أصلي" ردت بعد حين في حنق وإصرار. نزلت من حوض الغسيل وجلست إلى جانبها على الكنبة.

"لماذا لا؟".

"لأنني سوف أذهب إلى السماء إن أكثرت من الصلاة".

"وأنت ألا تريدين الذهاب إلى السماء؟".

"لا. لأنهم يقشرون الفاصوليا هناك".

تأملت بيـت الكلب بجانب الجراج، الـذي كان فارغا أيضًا. ومع ازدياد العتمة حاولت العثور على السلسـلة مـع رباط الرقبة. لقد كانت السلسـلة قد أخذت من زمن بعيد، ولكن ورغم بعد السـنين يبـدو للمرء أنه سـوف يلقى دائمًا آثارًا مرئية وملموسـة لذكرياته البعيدة.

المفتـاح لا يـزال يقبع تحت قطعة من طوب السـطح على رف نافـذة المطبخ. وبقلب مرتجف ارتفعت على أطراف قدمي رغم أن

الرف الآن لا يجاوز مستوى صدري، والتقطت المفتاح من الرف. ومع هذه الحركة سالت الصبغة مرة أخرى من القفازات، وصبغت الطوبة باللون الأسود، وجزءًا من زجاج النافذة، وحتى على الجدار سالت قطرات كثيفة من اللون الأسود.

عبر السلّم المكسور صعدت إلى باب المدخل ووضعت المفتاح في فتحة القفل. أدرت المفتاح بصعوبة حتى أصدر صوتًا، وعندها تصببت الصبغة السوداء من القفازات، ولم يَعْنِ ذلك خسارة كبيرة، فإن الباب المتهالك كان يجب إبداله في كل الأحوال. كانت الفتحة المستطيلة في الباب مصنوعة من قطعتين زجاجيتين، القطعة الخارجية الرقيقة قد تشققت، والقطعة الداخلية السميكة بقيت سليمة كما هي. لذا فإن إغلاق الباب لا يزال له معنى. ولتأكيد هذا المعنى أغلقت الباب بالمفتاح كما كان ووضعت المفتاح تحت الطوبة. كان بإمكاني أن آخذه معي، ولكن الأفضل أن يبقى تحت الطوبة ولا يضيع.

جفت الصبغة؛ والقفازات أصبحت ثقيلة وصلبة. كنت لا زلت واضعة يدي الغريبتين بعيدًا عني على شكل حرف "V" مقلوب.

وقفت في الشارع أمام البيت. وقررت أن أتجه نحو الجنوب على الطريق الطيني الذي يشق الضواحي القديمة للمدينة. هناك حيث تقف أشجار الحور العتيقة الشامخة. بالطبع لم أحب أن أقابل الجيران؛ لأنهم سوف يسألون ماذا فعلنا بالصبغة السوداء، وأنا لن أستطيع أن أختلق كذبة مقنعة بالسرعة الكافية، ولكن سوف أرتبك وأحاول أن أقول أي شيء بدافع الأدب. عندها سيجب عليَّ تحمُّل نظراتهم والحك خلف الأذن في شك قائلين: "تريدين القول

إن جدك طلى الميزاب؟".

على أي حال فإن الظلام قد هبط، فلن يلاحظ أحد قفازاتي السوداء الثقيلة ولا حتى وجهي. كان الوقت متأخرًا، أكوام القش تبدو وكأنها أشباح. هذا الجو الذي كنت ذات يوم أعرف كيف أخافه. هنا في هلع كان يمكن أن يطير العصفور مرفرفًا في الهواء، وتنطلق القطة بسرعة، وخلف ظهري أشعر بخيال المآتة واقفًا فيما يشبه السكون المرتج. وفجأة يمكن أن يظهر أمامي من خلف شجرة الحور كلب صغير أعوج الرجلين. كنت أخاف الكلاب الصغيرة. أعلم أنه لا يمكن الثقة بحجمهم الصغير، وكتمتُ صرختي حتى لا أنبه الآخرين. الآن! أردت أن أجري إلى بيتنا ولكن رجلي التي أدرتها لم تطعني. سقطت وقمت بسرعة دون أن أنظر خلفي لأرى ماذا يريد الكلب خلف ظهري. وعندما وصلت جريًا إلى عتبة باب بيتنا التفتُّ إلى الوراء. استطعت أن أتبين شبح كلب بعيد كان يجري في الاتجاه المعاكس.

وفي فناء البيت كان جدي واقفًا على السلم يطلي ميزاب الجراج. كان يعمل بإخلاص وبطء، فالميزاب لم يكن طويلًا حتى يقضي كل المساء في طلائه. كان غارقًا في عمله حتى إنني لم أستطع جذب انتباهه. لم أجرؤ أن أحدثه عن الكلب. إن خوفي كان دائمًا يغضبه.

"ادخل يا صغيري إلى البيت". قال لي بلطف، "سوف يدخل الليل وقد تصاب بالبرد".

لم أحب الدخول إلى البيت. لم أعد أخاف الظلام. فأنا في فناء بيتنا وجدي معي هنا. أخذت القفازات من جيبي حتى أريه أنني محمية من البرد والرشح وحتى من الظلام.

"انظر، انظر القفازات، يا جدي، القفازات".

همهم جدي في نفسه دون أن يبعد عينيه عن الطلاء. تقدمت إلى السلم حتى أريه القفازات، رفعتها عاليًا فوق رأسي. "انظر يا جدي، القفازات". كنت أصرخ وأقفز حتى أصل إليه. في تلك اللحظة عندما نظر إليَّ أخيرًا من على السلم سقط أحد القفازات في وعاء الطلاء الأسود. حاولت أن أتلقفه، ولكن هذه المحاولة الفاشلة أدت إلى سقوط القفاز الآخر في الوعاء. بقيت لا حول ولا قوة لي أنظر كيف تتحول قفازاتي الصفراء إلى لون الصدأ البني، ثم تدريجيًّا إلى الأسود قبل أن تختفي تمامًا في الصبغة السوداء الكثيفة. انتابني شعور كريه.

"والآن انظر ماذا حدث لقفازاتك يا طفلي البليد" قال جدي بصوت غاضب.

"قفازاتي، قفازاتي"، كنت أصرخ وأنظر إلى وعاء الطلاء.

جاءت أمي من البيت.

"ماما- ماما، قفازاتي سوداء، أخرجيها يا أمي".

"لقد ذهبت قفازاتك" قالت أمي بلا مبالاة، وأمسكتني من يدي حتى تأخذني إلى البيت، ولكني بقيت متسمرة في مكاني أنظر إلى وعاء الطلاء وبيدي الأخرى أمسكت بحافته السوداء.

رفعتني أمي وأخذتني في حضنها إلى البيت، صرخت: "قفازاتي، قفازاتي" قبل أن تغلق الباب خلفنا وتنكسر قطعة الزجاج الخارجية الرقيقة.

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

مجموعة "متوازيات" تحوي ثلاث عشرة قصة قصيرة متعددة المستويات، تستكشف الإنسان والمجتمع عبر منظار طفل بطريقة سيكولوجية رفيعة.

تجري أحداث القصص كلها في مسقط رأس الكاتبة، في شمال شرق سلوفينيا، في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات.

كل قصة من المجموعة تعرض بعيون طفل مواضيع مختلفة لا تزال حيوية وراهنة، ولا زالت تثير الجدل، حيث تصنع الكاتبة باستخدام التفاصيل الحية والمنتقاة سردًا متكاملا متماسكًا يكشف لنا خبايا الحياة اليومية المثيرة ومستوياتها المتعددة، والأسئلة متعددة المعاني التي تبقى دومًا دون جواب.

سوزانا تراتنيك

كاتبة ومترجمة وصحفية وناشطة اجتماعية سلوفينية، حصلت على الماجستير في علم أنثروبولوجيا الجنس. صدرت لها خمس مجموعات قصصية، وحصلت مجموعتها القصصية "متوازيات" على جائزة بريشيرن للأدب، وهي أعلى جائزة سلوفينية تعطى في مجال الآداب والفنون.

Cover design by: Alaa Elnewehy

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET